obeikan.com

شمس

الكتاب : شمس
المؤلف : آية هلال
تصميم الغلاف : إسلام علام
تدقيق لغوي : أحمد أسامة
رقم الإيداع : 2015/21722
الترقيم الدولي : 978-977-778-036-0
الطبعة الأولى : 2016

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت-02-35860372 011-27772007
Noon_publishing@yahoo.com
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

obeikan.com

شمس

(هيليوفوبيا)

رواية لـ

آية هلال

obeikan.com

obeikan.com

(للمرض طرقات.. تحلُّ المصائبُ تباعًا على عاتق أولئك الذين يجولُونَ فيها وعندما يتعلّق الأمر بالمرضى النفسيين .. فعليك بالحذر إذا ما جُبْتَ طرقات العالم الإفتراضي الذي يخلقونه ويؤمنون به.. فقد يلقى كل من يمر بهذا العالم، ولو بغرض المساعدة، مصائر الردى والهلاك)

آية هلال

الرهاب

obeikan.com

obeikan.com

(1)

أغلقت أبواب القصر كلها عندما دقت الساعة الثانية عشر ظهرًا. هرعت أمي إلى مخبئها فهي تكره الشمس، أعدت غرفتها حتى لا تستقبل ولو شعاعًا واحدًا من شمس النهار الحارقة. اعتبرتها في بادئ الأمر مُزْحَةً لطيفة منها لتتجاذب معي أطراف الحديث في الهاتف عندما كنت مُغَيَّبًا في أحد شواطئ نهر الدانوب بفيينا أعمل في (كازينو) كما يقال عنه، يجلس به المتحابون وأعزف لهم لحنًا من ألحان الهدوء الصافي و الرومانسي على أوتار الكمان الذي تتخلله بعض رنات البيانو الرقيقة والتي تجعل من يجلس يطير حالمًا هو ومن يحب. كنت أهاتفها مرارًا في الصباح وأخشي دائمًا أن أجدها نائمة متعبة، لكنها كانت بصحة جيدة تتحدث كمن بات نهاره و أضحى ليله وعكس موازين الحياة. مدة غيابي عنها طالت لعشرة أعوام لم أستطع فيها أن أعود إلى وطني مُرغمًا بسبب رب العمل، ولكنني وجدت في قهره متعة من يجلس على شاطئ من شواطئ الجنة ويطلب الرحيل.

علاقتي بأمي لم تكن على أكمل وجه، إنها شديدة التحفظ، شديدة الحرص، كثيرة البكاء على ماذا؟! إنها لا تجيب وتعشق حياتها هكذا، ثم حدث ما لم أكن أتوقعه، لقد حرمت من الجنة ونعيمها ونسماتها وهدوئها وتم بيع (الكازينو) إلى أحد الكارهين للجنس العربي فطردني

بدون وجه حق – رغمًا عن شهادة الكل عني و حملي للجنسية النمساوية - .. لكنه يعلم أصولي العربية الإرهابية على حد ماذكر. وجدت حينها انه لابد أن أعود إلى الوطن الإرهابي حتى لا أثير شكوك الغير، فبعضهم يبغض فكرة وجودي والبعض الأخر يتقبلها على سبيل النفاق، لذلك قررت العودة لكي أحتضن أمي البائسة لما تبقى لها من عمر تصارع معه أمراض الشيخوخة التي لم تظهر حتى الآن !!

عند وصولي أتيت في النهار الحارق كما تزعم فلم أجدها بانتظاري، لكنها أرسلت إحدى خادماتها (صفية) لكي تحمل معي أمتعتي وتسلي وقتي من مطار القاهرة وحتى قصرنا الجديد الذي يقع في مكان ما قلما تزوره الشمس وتعكر صفو والدتي الحسناء تكسوه الأشجار العالية وتغلفه أوراقها - حسنًا .. نسيت أن أذكر أنني من عائلة سخية كريمة فاحشة الثراء وأحمل فى البنوك ثروة طائلة، لكنني أعشق الحرية والبساطة لذا اخترت أن أكون عازفًا للكمان يتلقى رزقه من وجع معصمه وتأزم عضده ولا أتذمر بل أطير سعادةً وفرحًا -

كانت صفية لذيذة رقيقة مسلية حقًا – لم يكن هذا اسمها على ما أظن فهي تحمل جمالًا رقيقًا ينغمس ببشرة بيضاء أوروبية و شعرًا أشقر، أما مقلتاها فهما مزدانتان بعدساتٍ خضراء تشبه رفيقاتي النمساويات نوعًا ما. تتحدث العربية ولكنني لاحظت أنها ثقيلة على لسانها، فعلمت أنها ليست كما تَدَّعِي أمي بكونها مصرية هي فقط

تتظاهر بهذا لتكسب لقمة عيشها كما يقول البعض، وبعد مجاراتي لها علمت بأنها من أصول إيطالية لأب مصري تمكن من الفوز بها في سباق مع والدتها حتى انتهى بها المطاف هاربة من تسلطهما تاركة بصمة لغدرهما في سياق الضياع الأسري العتيق.

وهي ليست (صفية) كما تَدَّعِي، إنها الجميلة (صوفي) وظل هذا سرنا حتى لا يعلم أبواها بمكانها ليعودا فيغتصبا حقوقها كما يفعلان دائمًا.

عند وصولي القصر الفخم الذي أمتلكه شرعيًا كما يزعم محامي العائلة، استنشقت رائحة أمي التي تركتها عِقْدًا كاملًا ظلت كما هي كأنني تركتها أمس لألهو مع أحد أبناء الخدم – نعم ، نحن نعيش في هذه الكذبة القديمة نوعًا ما، الخدم والأمراء و صاحبي الثراء – لكن كل هذا أصبح ماضيا عتيقًا فلقد تم منع تواجد أطفالهم بسبب تنازلي عن كبرياء العائلة و تدنيس اسمها في وحل الفقر البغيض !

عندما رأيتها سبقتني قدماي إلى أحضانها وفَرَّت دموع عيناي، ذهبت مبتسمًا دامعًا إليها مادًا يداي تتطاير الفرحة من جسدي الذي شعر بفقدانها فجأة وبدون مقدمات بعد عمرٍ كاملٍ من الجفاء والهجر لكنها ابتعدت في تأزم ولم تقل سوى (حمام ساخن أولًا).

وقفت ألملم مشاعري التي بُعْثِرَت أرضًا وجمودي المفاجئ و ماتبقى لدي من كرامة أمام (صوفي)، حملت حقيبتي و ذهبت إلى غرفتي لكي (أستحم) كما طلبت (سيدة القصر)...

السيدة التى هجرتها عقدًا كاملًا تنكرت لمشاعري في لحظة واحدة. لم أترك اللوم يرفرف حولها وحدها ، فأنا من بدأ هذه الحرب الصامتة وأنا أيضًا من يجب عليه أن يتحمل عواقبها الباردة، فالمكوث في أرض تجلب لك الراحة والسعادة أينما كنت، يتطلب من الزمن فيما بعد بأن يُذِيقُكَ بعضًا من كؤوس الكراهية والضيق اللذان تلدهما الظروف كي تنغص عيشك الهادئ السعيد.

الجو الذي تهيئه أمي في هذا القصر الفسيح الذي يكتظ بنساء حسناوات صاحبات أوجه صافية لم يشوهها الزمن بأداته البالية الصدئة، يجعلني أشعر برومانسية قاتلة، الشموع .. الضوء الخافت .. الخادمات .. القصر المحتضن أسرار ساكنيه .. و أمي التي لا تترك غرفتها وحيدة أبدًا، ماذا ينقص هذه التوليفة الرائعة ؟ حتمًا وجود رجل .. حتى تكتمل الصورة، لن يصيبني الملل فى هذا القصر إلا قليلا، فكل شئ هنا رُتّبَ حسب قوانين الهدوء، ولن تستسلم لك الدنيا بكليتها هكذا دون أن تعكر صفو شيءٍ ما على الأقل، حمدًا لله أن هذا الشيء قد تعودت على التأقلم معه منذ زمن ...

***

أتسابق مع الحنين ومعها، ذكرياتي المدفونة داخلها. جدران القصر تحمل طرازًا مألوفًا؛ برعت أمي في إعادة الماضي باستخدام معالم الحاضر فهذا ليس القصر الذي ترعرت فيه لا يحمل روحه، إنه يحمل من الجمود ما يرهق ذاكرتي، إنها تشعر باللاشيء! لا يستفزها

حضور الماضي لتحيا من جديد وتبعث مايسمى بالبركان العاطفي الذي يحفز العين بأن تغرق الجسد دموعًا وتغلفه شرودًا وتسيطر على القلب ليدق فضولًا. روح الماضي لم يتم إستدعاؤها على الرغم من وجود أثاث قصرنا القديم كاملًا. ظللت هكذا لحظات لا أشعر بشيءٍ حتى وجدت صندوقًا يجلس ناظرًا إليَّ في فضولٍ يراقب تنغصي و بُغضي لما أرى كأنه يعلم بأنني سوف أهرول إليه وأحتضنه بعد ألف عامٍ من البعد والجفاء، يحمل عنوان السعادة، الماضي بكل أحداثه يستقر داخله، ظل متماسكًا رابضًا على أرض غرفة صماء مثلها مثل الأخريات، لا تبث طيف الذكريات ليبرق شريط ذاكرتي أمام عيني وأسبح مع أحداثه – لحظة! إنها غرفتي كما هي هذه أريكتي و هذا سريري كم شهد من أحلام هائمة حققتها كلها بدون تأجيل - نعم - فأنا ابن السيد الذي يحمل من الثروة ما تمكنه من جلب السعادة حيث تقع قدماه أو هكذا اعتقد - لقد مات أبي حسرةً على فقده لمصنع من مصانع تكرير السكر خاصته، مصنع واحد فقط ليس غير!- كان شديد الحب للمال والنفوذ، كان يعشق نقوده ويقضي ساعات في خزانته يشم رائحة النقود فقط! انها عائلة غير سوية كما يدور بأذهانكم الآن. حسنًا .. لقد أطلت في وصف أبي، تبًا للغرور، لنعد إلى غرفتي الساطعة التى تتخللها الشمس - حمدًا لله - هناك شمس، سبحانك! كدت أقتنع بأنني سأهجر تلك النجمة الدافئة كما هجرتها أمي . فهذا القصر يسعل ظلامًا و يشتعل جفاءً ولقد أتيت لأشفيه من سقمه وأزرع فيه الحياة لكن بالطبع بعد أخذ الإذن الفعليّ من - سيدة القصر - ..

كنت أجلس متحيرًا أمام الصندوق هل أنتهك حرمته وأفتش في خصوصياته ؟ أم أنتظر أخذ الإذن منه؟ لكنني لا أعلم كيف أو ربما أماطل و أحاول خلق أعذار خوفًا من أن أعيد ملف قد تم غلقه منذ سنين حتى قاطعتني (صوفي) متمتمة في خجل ..

- Per favore .. مدام منير بتسأل أخدت حمام سخن ولا لأ

أعشق لكنتها الإيطالية لقد طلبت منها ونحن في طريقنا إلى القصر أن تتحدث معي على سجيتها بأي لغة تختار فقط تكون هي بدون تكليف بدون قيود تحسبني صديقًا أو ربما أكثر - فأنا نمساويٌ في المقام الأول - وهذا انتمائي الأول دائمًا ..

- الصندوق ..

- (mi vuoi aprirlo?) تحب أفتحهولك

- no

- (come vuoi) زي ما تحب

إنها تذهلني بدلالها رغم محاولتها ألا تظهره، لكن طبيعتها الأنثوية أجبَرَتْهَا على ملاطفتي لتبادلني إحساني، أشعر بأنها ترغب في التحدث بالإيطالية وأنا أُشْبِعَهَا رغبتها فقط لأظهر بمظهر الرجل المتحضر على عكس ما تُجْبِرُهَا أمي.

- (mi vuoi aiutarte?) تحب أساعدك في حاجة ؟

حسنًا .. سأحاول منع نفسي من الرد على هذا السؤال إننا في مصر على أي حال ..

grazie -

بعد أن أخذت حمامًا ساخنًا وقمت باستخدام العطر العربي الذي وضعته أمي خصيصًا في حمامي وكَلَّفَتْ صوفي بأن تخبرني أنها أمرت أن أضعه قبل أن أراها، ولكي أنول رضاها بلعت غصتي وحاولت التأقلم ..

لِمَ؟ !

لا أدري في الوقت الحالي، ربما آن الأوان لكي أستلم تلك الأموال الطائلة أو أن آخذ ما أريد أخيرًا وأذهب إلى هذا العنصري لأطرده من جنتي الوردية ولربما آخذ صوفي معي .. ربما ..

صعدت الطابق الثاني فأمي تأبى أن تقطن في طابق سفلي ظنًا منها بأنها هكذا ستقلل من منزلتها أمام الخدم، وأيضًا تأبى أن تصل إلى القمة خوفًا من أن تباغتها الشمس يومًا وتعكر صفوها!

- أمي ليست من الجنس "الأمهق" لكنها تكره هذه الحروف كرهًا غير طبيعي .. ش م س –

ولهذا لا تريد أن يناديها أحدًا باسمها مدام (شموس). يا الله! ليست شمسًا واحدة، عليكم أن تروا وجهها وهي تسمع أحدًا سَهى عن هذا

ونطق حروف اسمها، ستقتله حتمًا وتقتلكم ضحكًا، سأخبركم عن هذا السر فيما بعد لنضع قليلًا من التشويق فهذه السيرة سوف يتحتم عليها أن تنتهي في أحد السطور القادمة ولا أريد أن ألخصها في حروف زهيدة لن أطيلها عليكم. دعونا نذهب إلى أمي الآن .

فى الطابق الثاني رأيت منحوتات وتماثيل ولوحات غاية في الروعة والجمال كلها أصلية الصنع والمنشأ، أشعر وكأنني تم إلقاء القبض عليَّ وحبسي في متحف للأنتيكات عند استخدام نقودها قد تُحْيِي قرية بأكملها حتى أسرتني إحداهن، صورة تحمل كل معاني الألم، استفزت دقات قلبي و بثت دموعًا في عيناي، إنها صورة تحوي أفراد عائلتي الكرام، أمي، أبي، أنا، و نوران (زوجتي).

زوجتي الجميلة والدة (حلم) ابنتي الأجمل التي لم أرها قط وهي لم تر النور يومًا، فقد ماتت في بطن أمها وماتت معها أمها ألمًا. سحقًا للذكريات، سحقًا لهذا الصندوق ولهذه الصور و ..

- أمي !!

وجدتها خلفي تضع يدها على كتفي تربِتُ عليه جيدًا أمسَكَت بيدي ثم أخذتني إلى غرفتها شعرت حينها بأنني عدت حقيقةً من غُرْبَتِي الموحشة. لقد هربت من كل شيء من جنون أبي وغرور أمي و موت زوجتي وطفلتي تناسيت أو ربما نسيت. لماذا عدت !..

- زين .. زين انت وحشتني

أجبتها بسخرية

- بقيت كويس بعد الحمام!

- انت عارف أنا ما بقدرش أنا لسه بتعالج

- وما خفيتيش

- .....

- فوقي من وسواسك كل الناس عايشة ما ماتوش من طبيعتهم مش شرط أتعقم علشان أعيش

- سيبك مني أنت عامل إيه؟ بقالي كتير ما أخدتكش في حضني واحشني حضنك الجامد أنا بقالي عشر سنين ما حستش بأمان كنت حاسه إني لو انحنيت غصب هقع من غير سند، سندي اللي حته مني بعيد

- وأديني جيت

- مش هتسافر؟

- مش هسافر

- توعدني؟

احتضنتني بقوة فتنهدت راحةً بعد عناء ..

- أوعدك ..

طبعت قبله على كتفها وطلبت أن أريح جسدي لأنام وذهبت ..

تمشيت هائمًا، لقد أخذت جرعة مركزة من الشجن، دُسَّت في وريدٍ نابض، ثبَّطَتْ من حيويته ثم تركته ظمآنًا لا يجد نهرًا يروي به تعطشه للحياة .ماذا تبقّى من كل هذا؟ سيدة أذبل المرض عقلها بعد أن ترك جسدها صحيحًا لا تشوبه شائبة، قصرٌ مخيف يجمع بقايا الحرب العاطفية الماضية و أموال لن يستفيد منها كلانا ولن نستطيع أن نستنفذها كلها ما حيينا. غَمَرَت الدموع عيناي، جاهدتها حتى لا تعلن عن قدومها إليّ، إنني مرهق من فعل تلك الدقات القلبية المرتبكة واهتزازات يداي اللا إرادية فالحزن حين يهبط على القلب يزيح الشعور الحسن كما تزيح الطائرات كل ما تقابله عند هبوطها.

شريط الأحداث يمر أمام عيناي الآن، يذكرني إجبارًا بمشاهد دُفنت منذ زمن و تحللت أحداثها. لعنت ذلك العنصري الجشع وتلك السنوات الكاذبة و سَبَبْتُ نفسي معها، تمنيت أن تأتيني (نوران) تزيل عني تلك الهموم التي سكنتني كما كانت تفعل . يدها تحمل من الحنان ما قد تحمله نساء الأرض أجمع. جميلة كانت ولكنها لم تكن رائعة الجمال فقط، بل كانت رائعة المشاعر أيضًا. كانت تحيي بباطن يدها كل شيء أعلن عن استسلامه لطعنات الحياة حتى طَعَنَتْهَا الحياة بِخِنْجَرٍ مسمومٍ على غفلةٍ منها لم تقو على احتماله.

روحها الطيبة تطوف حولي، كلما شعرت بضيق أشعر بدفئها النابع من لهيب أشواقها إليّ الذي حرمني الواقع من تحقيقه ماديًا ملموسًا.

الحياة القابضة على النَفَسْ الخارج والداخل إلينا أشد إيلامًا من موتٍ قبض نفسًا واحدًا ومنع الباقي من الشعور بآلامه .

***

وصلت إلى غرفتي محل أحلامي، ملتقى خيالاتي و بئر أسراري. مخبأي الصغير الذي افتقدته أعوامًا اتكأت على دولابي المُطَعَّم بالعاج ونظرتُ بعينٍ متسعةٍ لامعة إلى أحد أركان الغرفة، رأيتها .. ارتسمت لي بعودها الممشوق، بأنوثتها الصارخة و شعرها المنثور على كتفها كستارٍ يحمي آيات الجمال من خلفه بشرة خمرية تلونها عينان رماديتان وشعرٌ بنيٌّ قتّال، خيال .. هي في حضورها خيال .. وذهابها خيال.

نظرت إليها وقد ارتدت فستان السهرة الأرجواني المُرَصَّع باللآلِيء الذي يقتحمه الدانتيل ليُكْسِبَهُ جمالًا. ينساب على جسدها (بجيبونة) من الحرير الناعم لتمنع احتكاك الدانتيل الخشن على جسدها الرقيق. كانت تنظر إليَّ في اشتياقٍ تتحسس بطنها لتطمئن على جنينها المنتظر، تنظر إليَّ نظرة اطمئنان تشبعني لهفةً ترهقني توترًا وتدفعني إليها لأدفن رأسي في موطنها و أريح جسدي من صبره على فراقها فلقد كلّ انتظارًا، وها هي الآن تظهر كاملة ليس حلمًا أو خيالًا، ركضت كالفرس في السباق أريد الفوز بها دون عناء واقتربت لألمس خصلاتها فتوارت عني إلى السراب، سيُصيبني المرض حتمًا بعد هذا العذاب .

أين هي صوفي الآن؟ كانت تريد أن تساعدني في أخذ حمام ساخن، أليس كذلك؟ حسنًا ربما هي التهيؤات لنقول أنها تفعل هذا مقابل

كسب ودي لأعطيها المال مثلًا أو ربما وقعت في غرامي، على أى حال ستثبت لنا الأيام نيتها. حتى الآن يجب أن أتذكر أنني في مصر لا داعي للخوض في أشياء قد ترهق أمي تفكيرًا أو تأمينًا فكلاهما سِيَّان، فهي تكره التلامس البشري أيًا كان، أتعجب من حضنها الدافئ المفاجئ لي، إنها غريبة الأطوار حقًا.

إنني أتوق إلى رؤيتها نائمة.. هذا يُشْعِرُنِي بالاطمئنان. فهي بالنوم ترتاح من التفكير، تجهد عقلها طوال اليوم بالنظافة و تأمين القصر من أشعة الشمس. فالفزع يتملكها من أن يصيبها سرطان الجلد كما حدث لصديقتها التي ماتت من الخوف لا من المرض. ظنت أمي أنها ستصاب بمثل مرض صديقتها التى اختفت بعد ان أبلغتها هاتفيًا عن مرضها، فتوارت خلف الأشجار وابتعدت عن أي علاقة بينها وبين اتجاه أشعة الشمس وسكنت الظلام طيلة الخمسة أعوام الماضية، لم أعش معها فيهم ولا أعلم طباعها الجديدة، لكن ماذا سيكون سوى وسواس جديد يسكن قصرنا ويهلكنا تأمينات و وقاية وعلاج؟ ليست بمعضلة ..

أشباح أمي النفسية أصبحت صديقتنا الحميمة، لن نمنعها من الزيارة المفاجئة إلينا، وبالطبع لن نبخل عليها بحق الضيافة الكريم . ربما من الأفضل ألا أقوم بإزعاجها و التطفل على غرفتها التى تستضيف فيها أصدقاءها فلن تفيديني نظراتهم الخبيثة التى تصيب متلقيها بهواجس غير عادية ..

حسنًا من الأفضل أن أطمئن على صوفي أولًا أو ربما لن أُطِلَّ على والدتي الآن فبعد صوفي لا أظن أنه سيوجد وقت للاطمئنان عليها هى وأشباحها - دعونا ننسى مصر هذه الليلة .. هذة الليلة فقط .. أعدكم .

***

في الصباح .. اتجهت إلى غرفة أمي لأزورها قبل أن تأتي وتكتشف مبيتي في غرفة إحدى الساقطات وتعطي استمارة (6) للجنة التي وجدتها في هذا القبو الفخم، رغم انها أنستني ذكرياتي الأليمة حقًا حتى أنستني ملابسي، تبًا! إذا رأتني أمي ستقتلني و تدفنها حية؛ وأدٌ من نوعٍ أخر.

صوفي هى اليد اليمنى لأمي، إذا رأت منها تقصير سيؤدي بالضرورة إلى هلاكها، وإن أظهرت أمي بعضًا من عدم احتياجها للغير، لكن وجود خادمة لها مكانة خاصة فى قلب ربة عملها وارد، و هذا ما لمسته من حديث صوفي عن أمي و تصرفاتها معها التى تحمل ودًا غير مألوف على من في مثل حالتها المتغطرسة تلك.

عند وصولي غرفة أمي سبقتني صوفي بتعليمات كدت أن أنساها (الحمام الساخن أولًا) كأنه عقاب ، أنا لا أدعى القذارة والإهمال لكنهما يفيدان في أوقاتٍ أخرى كمثل هذا الوقت تحديدًا، الويل كل الويل على القوانين. أتسائل هل كسرتها أمي يومًا ؟! ، يبدو أنها لم

تفعل .. فكسر القوانين يحمل لذة فى بعض الأوقات لن يُفّوِتُهَا مستطعموها ..

قهرًا، عليَّ أن أنتزع هذه الرائحة الإيطالية على أمل أن أعود إليها من جديد، في المساء ربما ..

سآخذ الحمام الساخن الثاني ولم يمر علي وجودي يومًا كاملًا في هذا القصر بعد. رمقتني خادمة مصرية بنظرة غضب كأنها تدري بما حدث ليلة أمس، احتقرت هيئتي البشرية، وبالطبع تُعَامِلُ صوفي بمنتهى الاحتقار والدناءة لكن صوفي لن تلقي لها بالًا فهي تعلم ماذا تفعل جيدًا أو هكذا تظن ..

سحقًا لهذه الخادمة، متى ستتوقف الفتيات عن هذا التذمر اللا نهائي والحقد الوراثي من بعضهن ؟هى أجمل منك ؟ حسنًا، إذهبي إلى الجحيم .. من بيده تغير واقع محتوم (فلتذهب كل أدوات التجميل إلى الجحيم ومعها أطباء التجميل أيضًا) فكل واحدة من النساء تحمل من الجمال نصيبًا يعادل الأخرى. هذه نحيلة بيضاء عسلية الشعر والأعين لكنها بائسة، وتلك تبرز بها مواقع الجمال بدقة بالغة لكنها ليست فاتنة مجملًا، وأخرى يمتلئ جسدها بالدهون بكل أنواعها لكنها مرحة ومسلية . لماذا لا يفهمن هذا !؟ و كل واحدة منهن لها قرينها الذكر الذي يعشقها في الخفاء دون علمها، فقط يحسدن بعضهن وكلهن عند رجالهن (أميرات ديزني) - العفو يا الله .. العفو -

لنعُد إلى سيدة القصر .. أو هكذا قالت صوفي عندما روت لي في الطريق إلى القصر عنها وعن ما تقوله الخادمات، وكان لقبها الساري بينهم بتهكم شديد و سخرية واضحة (سيدة القصر) لكن هذا يشبع غرور أمي ويُكسِبَهَا كبرياءً أكثر، فهى لم تتعامل مع طبقة مماثلة و تتعلم طرق هَرَجَهُم المهين.

لم تذكر لي الحسناء صوفي أي شيءٍ مبهج في حديثها سوى أن القصر يعج بالخادمات كلهن من بنات الجنس اللطيف لا يوجد رجل واحد يدخل القصر سوى محامي العائلة العتيق و أنا . لذا أحببت القصر قبل أن أصل إليه (غريزة سائدة .. ليس ليَ دخل في تغييرها يا سادة .. أشكركم على السُبَابْ لقد أفادني كثيرًا وأعطاني ثوابًا يعادل ذنوب ليلة أمس .. أو ربما أقل .. أقل بكثير .. حسنًا .. أنا لا يُغفر لي) .

ربما قد حان الوقت الآن لأن أتجه إلى أمي و أحدثها فعليًا عن الخطط التي أنتوي تحقيقها في هذا المكان أنا لن أقوى على العيش بدون آلة الكمان، أوتاره تتخلل حواسي وتملأ تعطشي إلى الحرية والتحليق في السماء وأيضًا، أريد شاطئًا يملأ الهواء بعبق الحرية الشافية، لا أستطيع العيش بدونها إنها سبيلي في الحياة. إنها أكسجيني الذي أحيا بوجوده وأختنق بفراقه وأيضًا، كيف لي أن أهجر الشمس بعد أن أكسبت جلدي تلك الحمرة الفاتنة بشهادةٍ من فتيات فيينا و تأمينًا من صوفي؟ لا أستطيع خنق الحياة هكذا، يجب أن أجد حلًا، يجب أن أجد عطرًا أخر، و قوارير من النبيذ تؤنس وحدتي، كانت ثلاجتي تعج بأصناف مختلفة من كل بلاد العالم، هدايا سياح

الكازينو لعازف الغرام. كنت أتباهى بهم أمام صديقاتي أو ربما كن يأتينني فقط لأجل تلك الزجاجات التي تحمل أفيون السعادة الحالمة، إن مذاقها يختلط بمذاق صوفي الآن. إنني أحاول جاهدًا أن أخلق أسبابًا تمنعني من أخذ هذا الحمام الساخن لكن، أمي أولًا، رغم أن اشتياقي لها لم يتخطّ حدود ضمة ليلة أمس. لكنني لن أستطع تحمل دموعها المنهمرة كل مساء على ماذا تبكي؟! لا أعلم حقيقةً! ولن أُجْهِدَ عقلي تفكيرًا بشيءٍ لن أصل معه إلى طريقٍ سالكٍ، فأمي بصحة جيدة حمدًا لله نتيجة هذا الوسواس الخبيث أما بشرتها فهي شاحبة نوعًا ما لكنها ليست بمريضة على ما أظن و يصل يقيني إلى المائة في المائة بأنها تأكل طعامًا صحيًا إلى أبعد الحدود، ربما سأطلب من صوفي بأن تأخذني لتريني معالم هذا القصر وما يحيطه من حدائق و ساحات تحججًا لكي أمضي معها وقتًا بعيدًا عن هذا المعسكر الأنثوي رغم أنني تتخللني خيفةً ظهور شبح خادمة ترمقني بنظرات مهينة، ربما نظراتها تلك بسبب الغيرة التي تأكلها بداخلها لأنها لم تأخذ مكان (صوفي). ولكنني سأخذ المخاطرة هذة المرة و أخوض التجربة بعد الأخذ بإذن (سيدة القصر ...)

***

(2)

الآن الساعة هي الثانية عشر ظهرًا وعشرون دقيقة كما أخبرتكم في بادئ الأمر، أمي الحبيبة أمرت خادماتها بإغلاق النوافذ و الأبواب و منعتهن من الخروج حتى لا يُصَبْنَ بمرضٍ قد يضرها لاحقًا، لذا تستقر كل واحدة منهن في مخبئها المعروف منتظرة الأوامر والتعليمات الجديدة ..

وصل إلى قصرنا في هذه اللحظة طردٌ ما عجبت من وصوله، فلقد قالت صوفي انه قلما يأتينا زائر أو ساعي بريد، كل شيء يسلم على بوابة القصر التي تحرسها سيدة شبيهة بـ (الشاويش عطية) و يُعَقَّم أولًا ثم يأتي إلى والدتي بعد مروره بقنصل الطبيبات القاطن الطابق الأول - حسنًا سأزورهن يومًا فأنا أعاني من اللاشيء وهذا داء خطير جدًا يا سادة، صدقوني ..

أصابني شكٌ خفيف لا يؤرقني حاليًا عندما سمحت أمي بدخول الطرد دون أن يتم الكشف عليه والتأكد من سلامته وتعقيمه قبل الوصول إليها، وضعته في غرفتها وأكرمت عامل الإيصال كرمًا سخيًا - عادةً لا تفعل مثل هذا - وقامت بإلقاء تحية الصباح عليّ ثم صعدت إلى مخبئها لتنعم بقيلولتها النهارية كما يقال أيضًا.

من الممتع أنها أتت هي دون أن أذهب إليها، عفتني من تكليف الذهاب إليها والحديث عن بعض الخرافات التي تعتقدها تملأ قلبي شُحْنَةً من الأشجان كافية لإغراق هذا القصر بالدموع الطاهرة.

ذهبت إلى غرفتي، ارتديتُ قميصًا أسود يحيط زرائره اللامعة نقوش بارزة من خيوط سوداء وتركت أول وثاني وثالث وكنت أتوق إلى أن أترك رابع زرٍ مفتوحًا، لكنني تذكرت نظرة تلك الخادمة البائسة فخشيت على جسدي من الحرق، فاكتفيت بهذا الكَم من الجاذبية فمعظمهن عذارى كما قالت صوفي ..

ارتديت بنطالًا من الجينز الفاتح و تركت القميص حرًا بدون قيود فضفاضًا على جسدي وحلَّيْتُ مِعْصَمِي بأساور من جلدٍ وخرزٍ قد صَنَعَتْهُم لي إحدى صديقاتي النمساويات الفاتنات وسلسة من الفضة الخالصة تحمل دائرة مزدوجة لم أملك الجرأة يومًا لأن أقوم بفتحها أو حتى خلعها، كدت أنسى حذائي اللامع لكن صوفي قامت بإحضاره من حقيبتي وهي تختال أمام عيناي بدلالٍ وتتمايل برشاقةٍ منحنية بإغراءٍ لتحضره لي. بدأت أعشق هذا الحذاء. يتملكني الشعور بالدلال. يبدو أنني أتظاهر بنسيان واقعي بهذه الخرافات، طلبت مني أن أنتظرها عند باب القصر حتى تخبر أمي بأنها ستتغيب بعض الوقت معي لترشدني إلى ما أريد الذهاب إليه.

طالت فترة غيابها، تعدت العشر دقائق، هذا القصر واسع المساحات لكن ليس كل هذا الوقت، تمشيت خارجًا تاركًا لها ورقة بالإيطالية على تمثال حصان يربض بجانب الباب .

أخذتني قدماي إلى حديقة واسعة تطل من حوافها منحوتات رائعة تُحمل على عمدان شاهقة الإرتفاع و نافورة مياة دائرية تتوسط مرمى البصر تتناثر فوق مياه حوضها أزهارٌ ملونة ووريقات يافعة كأنها سقطت لتوها من فرع شجرة كثيفة فقدت أوراقها نتيجة مداعبات الطيور الدائمة فوق أغصانها، رائحة صارخة تملأ أنفي لا تقوى عيناي على أن تُفْتَح لأرى مسببها، تاركًا أنفي يأخذ شهيقًا كاملًا لا ينقطع من جمالها. إنه نبات الفانيلا الذي تعشقه أمي يتناثر على أرض الحديقة زاهيًا يمتلك السُلْطَةَ البائنة في التحكم بمزاج جالسيه، طاغيًا بحضوره على كل أنواع الحديث يصِمُّ الحواس كلها و تحيا الأنف لتُنْعِشَ الجسد، تتراقص الأغصان بدلالٍ مع نسيم الهواء العليل تصدر لحنًا منغمسًا بخجل فوريقاتها لم تعتد غريبًا يتأمل جمالها المُلْهِم بنظراته هكذا دون حدود. دُفِنت هي الأخرى بعيدًا عن الحياة قطعًا، من بهذا القصر لم تجذبه نظراتي؟! حتى و إن كانوا يتلقون مثيلاتها خارج جدران القصر إن أُتيحَ لهم التسلل خارجه، فمعبد الرهبان الزاهد لملذات الحياة يهلل فرحًا عند قدوم ما يشتهيه ولا يحصل عليه طوعًا.

يخترق هذا الهدوء الراقي أغاريد الكروان والكناري الذي اتخذ من الجنة بيتًا، اللعنة! .. إنها الجنة حقًا مجسدة في حديقة حالمة لا

أستطيع منع إلحاح يداي على العزف، أريد آلتي العزيزة (ليزا) الآن أريد أن أغتصب أوتارها. تتوارد الألحان كالسيول الجارفة بذهني، إن هذا المشهد يُحْيِي روحًا قد قررت أن ترقد بسلام وها هي الطبيعة تُحْيِهَا من جديد. لا أريد العودة إلى هذا القبو البائس، أريد أن تلسعني أشعة الشمس في جسدي ليصرخ بالحياة، هذه الشمس الحارقة إنها الحياة كما يجب أن تكون .. يا إلهي! أغيب عنها شعورًا فقط وأتوق إليها هكذا، إنها الرغبة التي تستيقظ من أجلها الحواس وتخمد بسبب ضياعها، الشعور بالفقد أثناء الامتلاك يُكْسِبُكَ حبًا متزايدًا له، يُشْعِلُ القلب ولعًا ويرهقه إشتياقًا ويوتر العقل ليعتصر تفكيرًا فينتج ابتكارات جديدة.

أريد (ليزا) أريدها في هذه اللحظة وليس ما بعدها. بين صراخ أفكاري سمعت صوتًا ينشز، يحمله الهواء متقطعًا بعيدًا قادم من أوتار كمان، هل (ليزا) شعرت برغبتي بها فأتت تمشي على أوتارها؟! تبًا للكسل والتماطل، لكن ما هذا الصوت؟! إنها أوتار كمان بلا شك لكنها تُعْزَفْ بطريقةٍ خاطئة مُهِيْنَةً لـ (ليزا) إذا استمعت إلى تلك الإهانة ستثور وتقرر المبيت في صندوقها إلى قيام الساعة أو ربما إلى انتهاء الحساب حتى يأخذ مذنبها عقابه الشديد فتهدأ هي وتحيا من جديد.

تتبعت هذا النشاز الشنيع فوجدته آتيًا من كوخٍ صغير يقع غرب القصر مهجورًا يَنُمُّ عن وجودِ بعض الأشباح حيث أنه غيرُ آدمي، تُظلِّلُهُ الأشجار كأنه مُتخَفٍّ يُحاول أن يداري ضآلته بجانب هذا

العملاق الفخم على ألا يصطدما يومًا ويتباهى الأخير بمكانته وعلو شأنه ويحتقر ضآلة هذا الغريب.

اقتربت من بابه المصنوع من الخشب الردئ وحركته بقدمي حتى قبَّلَت ذرات الغبار حذائي، تبًا سأراضيك يا صغيري فيما بعد لأنني نسيت علبة مناديلي وسجائري ظنًا مني بأنها رحلة قصيرة لن تضرني إلى هذا الحد! حتى إنني تركت (ليزا) فلا تحزن سأدع صوفي تنحني لتنظفك وترضيني (تبًا للنوايا السوداء). رفعت عيناي على صاحب هذا التلوث السمعي الحاد لأطالبه بحقوق الأذن للإنصات إلى الألحان العذبة خاصةً في مكان كهذا، لكنها وقعت على ما هو أعظم مصيبةً وأكثر تلوثًا، إنها فتاة لم تقترب من الماء طيلة أعوامٍ عدة، يا الله! لو رأتها أمي لقتلتها بعُلَبِ الصابون و (الشامبو) وخرطومًا ضخمًا من المياه .

كانت تجلس ناظرةً إلى نافذةٍ صغيرةٍ في الكوخ لم أر معالم وجهها فقط شعرٌ ذهبيٌ يتشابك ليُكوِّنْ ضفائرَ غير متساوية مجتمعةً بربطة شعر أظن أنها حمراء لكن الغبار أكسبها لونًا باهتًا، و فستانًا متسخًا يبدو أنها ترتديه من أيام المراهقة فتمزق على جسدها اليافع يظهر ساقها الخمرية المغلفة بالأتربة و يدًا متسخة مُلطَّخة ببقايا الطعام و.. يا ويلتي! إنه الكمان المسكين محبوسًا داخل كفها المريب، صرخت بها من شدة دهشتي لافظًا كلمات مهينة أخشى أن أُسمِعَكُم إياها (فأنتم قوم مثقفون .. لا يحق أن أُلوِّثَ سمعكم وبصرَكُم بهذا الهُراء الفاحش).

التفتَت فزعةً في ارتباكٍ و أصابها الحرج و قامت بجريمةٍ نكراءٍ غفرتها ملامح وجهها الجذاب. عينان واسعتان بنيتان وأنفٍ صغيرٍ يتوارى بين وجنتين حمراوين وشفاهٍ أقرب إلى حبات الرمان المذكور تواجدها في جنة الخلد، عنق طويل يصل إلى صدرٍ نِصف مكشوف تحلَّى بالنمش البنيّ الخفيف راسمًا وشم لجنية على جسدها الصارخ البتول حسنًا سأحاول أن أهدأ، يجب أن يستفزني إسقاطها للكمان على هذه الأرض القذرة! يجب أن أُعنِّفَهَا، سُحقًا! ما هذا الوجه؟ إنها ساحرة بلا شك أسرتني في ذهول وصمت . لقد استسلمت إليها ولا يحق لي القبول بتلك السهولة! يجب أن أذهب الآن نعم سأذهب!

استوقفني صوتٌ كأصوات الطيور مغردًا تتبع نبراته موسيقى، لحنُهَا عذب يخطف القلب أولًا ثم يترك الأذن لتنعم بمتعة الإنصات إليه..

- أأ .. أأنا .. أأنا .. آسفة يا سي الأستاذ ..

يقتلني صوتك يا امرأة إصمتي! إنكِ تسوقين حواسي إليكِ وأنا أقاوم المجيء، ماهذا الصوت؟ لا تسألونني كيف! لكنها اخترقت صِمَامات قلبي وزرعت نبضًا جديدًا يُشعِلُ خلايا جسدي إذا مر عليها واحدة تلو الأخرى، جفَّ حلقي وتوترت كلماتي! نظرت إليها وقد وارت صدرها المكشوف بيديها، كأنها تمتلك غير هذا الثوب لتستر به عوراتها - تبًا لقد نسيت بأنني أول رجل تخطو قدماه هذا القصر منذ خمس سنوات - ..

عضت شفتيها في حرج و نظرت إليَّ من أسفل جفنيها نظرة يصرخ بها الحياء وهي تُهَرّوِلُ لتقف خلف الباب. ..

- حَ .. حَضرتك أكيد البيه ابن الست هانم صاحبة القصر

حقًا أريد منها أن تصمت. ارتفع حاجباي وأغمضت عيني منتشيًا بلعت ريقي الذي عاد بأعجوبة وأخذت شهيقًا مُرهِقًا و تمتمت ..

- انتي مين ؟

- أنا شش .. شم..

- إسمك شمس !

- والنبي ياسي الأستاذ ماذنبي أمي الله يحرقها مطرح ماهى قاعدة هى ال سمتني كده قال إيه عشان شعري بينور في أشعة ال أأ ..

- خلاص خلاص .. بتعملي إيه هنا .. وإزاي موجودة هنا أصلًا

- هقولك .. بس سايق عليك النبي ماتفضحني .. أنا غلبانة ..

روت لي قصة لم أفهم منها سوى إنها ابنة إحدى الخادمات المقيمات في القصر منذ أعوام وكانت تعيش مع والدها حتى توفي، ثم أتت إلى والدتها لتعيش معها لكن والدتها رفضت وجودها ولم تجد هي مكانًا تعيش فيه سوى هذا الكوخ البعيد عن القصر بعد أن علمت أنه لا أحد يأتي إليه، تتسلل فجرًا لتسرق ما تستطيع من الطعام وتعيش

حياتها تتسلى بما تجده في صناديق القصر التي تُخَزَّنْ في مخازن بجانب البدروم ..

دعونا من تلك القصة، الشيء المُخْزِي أن والدتها هي السيدة التي نظرت إلى نظرة قاتلة صباح اليوم .. من وصفها أظنها هي حتمًا. أظن بأنني أذوب عشقًا في جدران هذا القصر، لقد وجدت دواءً خيرًا من الحرية آلاف المرات.

(الحديقة يا سادة) جددوا نواياكم إذا تكرمتم.

اتفقت مع حسنائي الجديدة بأنني لن أتفوه بكلمة ولن أذكر وجودها .. حتى أنني وعدتها بتعليمها العزف على الكمان إرضاءً لعزيزتي ليزا، واتجهت مسرعًا إلى القصر حتى لا تشعر صوفي بغيابي وتبدأ في البحث عني .. ولربما تجرها قدماها إلى هذا الكوخ وتكشف عن سر شمس الصغير..

***

عند دخولي القصر وجدت الورقة التي كتبتها إلى صوفي كما هي، يبدو أن هناك أمرًا ما عليَّ أن أتفقده فالخادمات تتحركن بتوتر وسرعة، كلهن ينظرن إلى أعلى بطريقةٍ جنونية كمن يخاف طائرًا ما يحلق فوق رأسه مُحَضِّرًا نفسه للحظة الانقضاض النهائية .

تفحصت صالة الاستقبال الكبيرة ولم أجد ما يثير الربكة، صعدت الدَرَج إلى الطابق الأول فوجدت صوفي ومعها صف كامل من

الطبيبات والممرضات ذوات المعطف الأبيض الناصع الواصل إلى فوق الركبة بقليل وكلهن ينتعلن أحذية طبية تنافي هذا المظهر الكلاسيكي، لكن هذه طبيعة الزي الرسمي ليس لي دخل في هذا، ربما من الأفضل أن أُبْلِغَ هيئة الأطباء بالإتيكيت و أهديهم مصنعًا يصمم أحذية كلاسيكية تليق بهذا الزي الملائكي، لنعُد إلى القصر و حركة الارتياب الخطيرة التي حدثت فجأة. فلن يفيدنا الحديث عن الأزياء حاليًا ..

عندما رأتني صوفي قادمًا تظاهرت بالرسميات و حدثتني عن أغرب شيء يمكن أن يوجد في هذا القصر !

- أنا مش عارفة ازاي يحصل كده ! من غير ما تقول مدام منير عن وجود الحيوان ده معانا فى مكان واحد ..

- وصل إمتى ؟

- الطرد اللي جه من ساعة

- عرفتي إزاي ؟

- لما طلعت علشان آخد الأذن إني أجي مع حضرتك علشان تشوف القصر سمعت صوته .. الأول افتكرته صوت من التليفزيون لأن مدام منير دايمًا بتتفرج على أفلام من النوع ده فمدتش أهمية وطلبت إني أدخل

- وحصل إيه ؟

- لقيتها بتصرخ جامد وبتنادي عليا وأنا دخلت بسرعه لقيته اتفزعت ونااديت الشغالات كلهم و حاولنا نبعده عنها معرفناش لحد ما دكتور (سما) جت و ادتله حقنه مهدئة وقع بعدها عالأرض وقومنا شيلناه في صندوقه ..

- وأمي حصلها حاجة ؟

- خربشات بسيطة وفي أثر لعضه في رقبتها بس هي نايمة .. أخدت مهديء هي كمان

- الكائن ده تشوفوله صِرْفَة يخرج بيها من هنا فورًا من غير تأجيل هى أكيد ماتعرفش إن فى الطرد خفاش ! اكيد جه بالغلط لازم أمي يكون فيه متابعة شديدة حواليها علشان هتقوم مهووسة بسبب لمسه ليها و هتعقم البيت كله ..

جريمة جنونية ارتكبتها أمي لتوها، هذا المخلوق البشع الذي أحضرته أو أتى إليها عن طريق الخطأ قتل القاطنات بالقصر خوفًا. حتمًا يوجد وراء وجوده سبب ما، فأمي سيدة جبانة موسوسة تخاف أن تخلط يدها بيد أحد للسلام خيفة من أن يصيبها مكروه ما أو مرض جلدي مغمور فكيف لها ان تقوم بإحضار حيوان، ليس أليفًا بالمرة وإلى أين؟ إلى غرفتها مباشرة؟ يجب أن أرى تلك الطبيبة لتصف لي حال والدتي بعد هذه الصدمة العنيفة التي تلقتها.

في الطابق الأول وبالأخص جناح الطبيبات الذي وجدته قريب الشبه بـ (مرحاض كبير !) ليس إلا، مُبَطَّنٌ بالسراميك الأبيض وتعلق مطفأة الحريق في كل ركن به، لا يشوبه شائبة، الإضاءة شديدة نظرًا للون الأبيض الذي ينغمس به الجناح، حتى الأثاث أبيض يكسوه الجلد ومقاعد خشبية بيضاء أيضًا بالتأكيد هذا المكان يستهوي أمي فرائحته معقمه تعقيمًا تامًّا، بالطبع لا يحق لي التدخين في مثل هذا المكان والتنفيث عن ضيقي، ذهبت إلى إحدى الممرضات وسألتها عن(سما) الطبيبة التي هدأت أمي و أعطتها دواءً لحالتها المزرية لكن الممرضة لم تعطني جوابًا مريحًا قالت إنها هنا وليست هنا في آن واحد ! فتعجبت لتوترها في الرد ربما خجلت من كوني الرجل الوحيد هنا أو ربما تكون تلك الطبيبة تقوم بعمل خبيث و هذه الممرضة تعمل على تغطيتها حتى لا تثير الشكوك ! - أنا رجل أشك في الهواء المحيط بي وراثةً أكثر من كونها طبيعة أو عادة - بعد أن ضغطت عليها لكي تتحدث وأظهرت لها جانبًا من جوانب السادة القاسية لخادماتهن نوعًا ما، اعترفت بمكانها (مخبئها) كما قالت فهى غريبة الأطوار وتساعدها والدتي على هذا، حيث أنها خصصت جناحًا كاملًا لمشاريعها العلمية في بدروم القصر ومنعت أحدًا من الذهاب إليه مهما حدث، ذهلت بسبب هذا الاهتمام الكبير بطبيبة مثلها مثل الأخريات على حد علمي .. فذهبت إلى معملها بعد أن ابتسمت مجاملةً لصاحبة الوجه المتردد التي لم تترك في تأثيرًا لعدم انتباهي لها رغم نظافتها الفائقة وبراعتها في وضع مساحيق التجميل و العدسات اللاصقة والشعر المستعار .. - نحن نعرف الكثير يا حواء

لكننا نماطل من أجل استمرار الحياة - اللعنة عليكِ يا شمس .. لقد هوسَتني قذارتك .. سحقًا لسحر النساء. اتجهت مسرعًا إلى البدروم .. سبقتني صوفي معتذرة عن تأخيرها .. فلم أُعِرْهَا انتباهًا فأنا بصدد اكتشاف فاتنة أخرى غريبة الأطوار لأتفقد ما يدور في هذا القصر من أسرار!

عندما وصلت إلى البدروم كانت الساعة دقت الثالثة عصرًا .. وجدت تلك الطبيبة تخرج من وكرها خائفة تعدو في لهفة شديدة، تعالت أصوات أنفاسها مختلطة بصوت فرقعات صغيرة كالتي تصدر من الألعاب النارية الرديئة.. حتى أنني سمعتها قبل أن تقترب نحوي ! ..اصطدمت بي غير منتبهة .. وكأنها وجدت قاربًا لتهرب به من جزيرة الأشرار .. تمسكت بقميصي في فزع و أمسكت يدي بقوة وجذبتني خارج البدروم إلى حديقة القصر مهرولين لا أعلم حقيقةً ما سبب هذا حتى انفجر البدروم فجأة وأصدر ضجيجًا صاخبًا .. فزعني للحظة حتى أنني أمسكت يدها بقوة إلى أن وصلنا إلى النافورة التي فى وسط الحديقة.

وضعت يدها على صدرها تتنفس بسرعة هستيرية، دفنت وجهها في الماء كنت مثلها أنهج باستمرار .. حتى أن وجهي أصبح كتلة من الدماء .. جلست على سور النافورة و صببت الماء على وجهي وبعد أن هدأنا .. وجدتها تجلس مغمضةً عينيها كأنها لم تصدق أنها نجت بأعجوبة من هذا الانفجار .. سألتها بفضول ينطوي خلف لا مبالاة أظهرتها كي أطمس اهتمامي بما حدث:

- حصلك حاجة؟

جمعت قواها ولملمت شعرها الذي تمرد حول عنقها إلى الوراء، أخذت شهيقًا عاليًا وبدأت تتحدث بنبرة تَكَبُّر لم أنتبه إليها بسبب الصدمة التي تلقيتها لتوي

- لأ

- ايه اللي حصل هناك؟

- حطيت مواد خطر في مكان غلط مش مكانها سببت إنفجار

- وايه اللي جاب المواد دي هنا؟!

- مدام منير عارفة

- عارفة إنك بتجيبي متفجرات وساكتة؟!

- ده شغلي

- شغلك إيه بالظبط ؟! بتعملي ايه انتي بمواد خطر تسبب إنفجار في بيت زي ده؟!

- صدقني شغل بس انا اللي اتلخبطت!

obeikan.com

- إيه شغل الكيميا ده؟!! .. أنتو فاتحينها ايه هنا مش فاهم مستشفى ولا ملجأ ولا دار وكمان الجديد مركز بحوث؟ لينا كلام تاني أما أفوق من اللي حصل

ارتسمت شفتاها بابتسامة زيف وذهبت، تركتها تستجمع قواها .. يبدو أن هذا المكان يعُجّ بالفاتنات .. (ماترسالك على قارة) رائعة (فؤاد المهندس) تُطَبَّقْ عليَّ حرفيًّا الآن.

السؤال هنا! كيف سأهرب من ميعاد صوفي الليلة بعد هذه الصدمة القوية؟ عذرًا فأنا لم أعد إلى مصر حتى الآن ...

***

obeikan.com

(3)

حين تتذكر أنك وصلت أخيرًا إلى أرض الواقع بعد أن جُبْتَ الكرة الأرضية بخيالك ذهابًا وإيابًا وتترك كل الأجنحة المحلقة لتستقر أخيرًا على اليابسة. الجمود اللا متناهي حين توقن بأنك أنت، أنت فقط من عليه الوقوف ضد الملذات أجمع التي حُلِّلَت لك يومًا وبيدك تُحَرِّمها على مستحقيها هذا يعتبر الإنتقام الأصلي للحياة بعد أن سمحت لك باغتصابها ها هي تصفعك صفعة تعوق تقدمك مرة أخرى إلى الأمام ..

حياة مُجهدة وأفكار دائمة لم أتوقع بأنني سوف أعود لأعيش داخل ألغاز ليس لها أول عن أخر وكأن الكل يقف أمامي ليعوق استمراري أو كأنني الشوكة التي أوقعت الفرس متأوهًا في سباقه الرائع. الأشياء تتغير، عادات غير محببة اعتدت عليها كَرهًا لم أتذمر ولم أطالب بإخمادها وأنا أملك السلطة للتحكم بها لكن الحياة تعاندني، أصبحت خاملًا أسهر ليلًا مع شمس و أقضي نهاري مع صوفي وتعاندني سما بين الفترتين، تم إعادة تنظيف وتعقيم و بناء معملها في نفس يوم الإنفجار! نظراتها جامدة كأنها لا تراني، تتجاهلني وتقضي وقتها مراعية لهذا الحيوان القبيح حتى بعد أن شرحت لي أمي سبب تواجد هذا الكائن الملعون على أنه أنيس الوحدة الليلية وبأنها أحبت هيئته بعد مشاهدة أساطيره الخارقة في التلفاز وبأنه

يخضع للتحليل والتعقيم على يد سما فلا داعي للقلق أو التدخل فيما لا يعنيني كما فهمت من حديثها، لكن فكرة تواجده في قصر كهذا ليست بمريحة كيف لخفاش يقطن الجحور و يتخذ من الكهوف بيوتًا أن يعيش معنا في قصر واحد؟ كيف ترتاح أمي بغلقها لأنوار القصر دفعة واحدة طيلة اليوم حتى لا نقوم بإزعاجه ! أشعر كأنه يشاطرني تِرْكَتِي المؤجلة - فأنا لن أخالف أمي أيًا كان – لا أقوى على تحمل كم الخطابات المؤرِّقَة التي تلقيها عليَّ عندما أناقشها فى أمرٍ ما أو حتى إظهار بعض الاعتراض ..

لم يبدأ تنغصي هذا فجأةً إلا عند ظهور شريك آخر له بعد شهر من وجوده. الحجة السائدة في فم أمي و سما أنهم يأتون من محمية في أمريكا الجنوبية، هل هناك محميات للخفافيش ؟! وعندما سألت لماذا من امريكا الجنوبية بالأخص ذكروا نظافة و جودة الأنواع وأنه موطنه الأصلي لا أكثر. لم يرتح قلبي ولم تهدأ عروقي ، فإنه ينقبض صرعًا ويمددها غرقًا بسيل يغلي به جسدي في ألم ..

ذات نهار، تحدثت أنا و جميلتي صوفي، طلبت منها أن تخبرني كل ما يدور في القصر من ورائي وتكون لي سندًا وعونًا وأخبرتها برومانسية فائقة كم أعشق وجودها و أتوق الى الحديث معها ورؤيتها - هذا حديث يجعل النساء يذبن عشقًا في الرجال خاصةً إذا وقعن في غرام رجالهن - فوافَقَت دون نقاش مُتيَّمَة بنبرة صوتي الهامسة في أذنيها، أعشقها في صمت أو ربما لا فأنا حبيس شهواتي على ما أظن ولا أريد فك القيود ..

أما شمس، فسمحتُ لها باستخدام حمامي الخاص في نهار اليوم التالي من لقائي بها، فلقد أخبرتني صوفي بأن كل من في القصر يخلُدنَ إلى النوم عندما تولد الشمس في الأفق من العدم ولا يستيقظن إلا عند توهجها الشديد في الثانية عشر ظهرًا متممات على غلق النوافذ والأبواب و منهمكاتٍ في عملهن كالعادة لذا فقد انتهزت تلك الفرصة وأتيت بها إلى مَخْدَعِي أحضرت لها فستانًا من فساتين صوفي لكنه لم يلق بها فهى صارخة التفاصيل على عكس صوفي بجسدها الأوروبي الضئيل ..

كانت تدندن في حمامها أغنية لم أفهم من كلماتها شيئًا لبُعد الصوت لكن اللحن شيق وصوتها طربٌ أصيل أعجبني بشدة أيقظ حواسي وأعمى عينها وتركها تتجه إلى باب الحمام حتى خرجت هى قبل أن يعاجلني الشيطان ويمسك يداي بمقبض الباب ، خرجت في خجل مرتدية أحد قمصاني حاملة في يدها فستان صوفي الصغير متأسفة على عدم مناسبته لها و اضطرارها لأخذ ملابسي .

لم أتذمر إطلاقًا بل أحببت جرأة تصرفها وخروجها بدون تقيّد ..

كفى حديثًا عن هذا الدلال ..

أمرت الخادمات أن ينظفن الكوخ حتى أتخذه مخبًا من حياتهم المريبة وطلبت منهن ألا يأتين إليه مطلقًا لأي سببٍ كان ..

هيأت لها مكانها وقضيت معها أحلى أيام الصباح التي قضيتها مع امرأةٍ قط، فهي تمتلك روحًا مرحة فوق كونها كاملةً جمالًا وروحًا وصوتًا وشعورًا لا يشوبها سوى الجهل والخرافات التي تحكيها لي من الحين إلى الأخر، فلقد أخبرتني بأنها كانت تتحول إلى قطة في الليل تسرح في الأرجاء و يأتي النهار لتعود كما كانت لذا هجرتها أمها أما أبوها فتقبل حالها واعتنى بها (أهكذا يبرر لها أبوها سبب هجر أمها إيّاها؟! اللعنة على الجهل والجهلاء، سئمتها حينها لكنني اعتدت على خرافاتها حتى أصبحت حكاياتي الصباحية التي أغفو على أحداثها المشوقة !)

***

يتحتم علينا في لحظات الحب أو الكره أن نشعر برعشة تسري في أجسادنا تُرهِقُنَا تُبِيدُ أفكارنا وتمنح العقل إجازة من التفكير والتخطيط، تندفع مشاعرنا متخبطة تفعل ما تستطيع تحاول لو تُجَمِّد اللحظة أو تتخطاها، هي المتحكم الأول والأخير بنا، نصير عِباد اللحظة نسير معها إلى أي طريق تختار وإذا مررنا بمنعطفٍ مهلكٍ تخوض فيه وتعاند المستحيل، وعند اللحظة الفاصلة التي تحدد المصير تتغيب عن الوجود، توقظ العقل من غفلته وقد وجد نفسه في دوامة النهاية الحتمية لا يقوى على تحمل صدمات الواقع المرير فيختل ويتذبذب ويصدر أحكامًا وقرارات خاطئة تصيب أحيانًا وتخطئ أحيانًا أكثر و لا نتعلم منها شيئًا، فقط نمر بالتجربة عابري

سبيل نتمنى لو عاد بنا الطريق لنُهْلِكَ مسببيه ونُخْرِجَ أنفسنا أبطالًا لا أوهام جسَّدَتها خيالاتنا وصخبنا و شعورنا المحتال ..

لا أعلم حقيقةً ما سر كرهي لهذة المدعوة (سما) على الرغم بأنها خرقاء متكبرة متسلطة محتالة وأحيانًا وليس دائمًا يجذبني حذاؤها ! تعتبر المرأة في عالم الأناقة (حذاء وحقيبة) تعرف المرأة من كعبها العالي كما يُعرف الرجل من (الكرافات) أقوال قديمة ربما أفادتني اليوم، لا أُنكِرُ جمالها و ملامحها الوسيمة لا أُنْكِرُ عينيها الواسعتين البنيتين ولا بشرتها البيضاء الطبيعية ليست بدرجة صوفي الشاحبة لكنها لم تلوثها بعلب الدهان الذي يحتل الأسواق حاليًا، لا أنكر رشاقتها الكاملة كأنها ملكة جمال رُسمت ملامحها بدقة وحسب المعايير العالمية. أتدرون؟ إنها مثل (موديل الفتارين) في المحلات الكبرى يتخشب جسدها ويقف متزنًا طوال الوقت ثابتًا، تجلس جلسة صحيحة غير منحنية مستقيمة دائمًا، تشعرك للوهلة الأولى بأنها ذات منصب كبير أو ربما على الأقل (سكرتيرة) أحد كبار رجال الأعمال المتيمين بالجنس الناعم الذين يختارون موظفاتهم على حسب الجمال و الرشاقة لا الدرجة العلمية والبحثية، ويحق للموظفة أن تكون سيئة السمعة وهؤلاء من يتزايد عليهن الطلب في عصرنا هذا. يزين الغلاف الذي يحيط بتلك التركيبة العجيبة نظارة، يالكِ من امرأةٍ حمقاء ! أو داهية شديدة الذكاء، أين العدسات اللاصقة ؟ أنا لا أنكر أنني أكره تلك العدسات وأكذوبتها المزيفة إلا إنني أتعجب، هل هي تكرهها أيضًا؟! حسنا يا ذات الكعب العالي والنظارة الطبية والتنورة القصيرة لك يومٌ وتقعي في شباكي، إنها

عبارة عن (توليفة) لذيذة ربما تجعلني أتقبلها لهذا السبب. إذا ذهبت إليها لأحدثها عن أمر والدتي و الخفافيش القاطنة قصري الثمين تتظاهر باللامبالاة وبأنني جرثومة تتعامل معها باحتقار، تنتظر مني أن أنفعل وأُعَنِّفَهَا وأركض كالطفل المسكين يشكو إلى أمه معاملتها السيئة لتقوم بطردها وتعنيفها وتفوز عليّ عندما تُفَضِّلُهَا أمي بسبب حاجتها إليها، لكنني لا أُشْبِعُهَا رغبتها بل أُوقِعُهَا في شر أعمالها وأُظهِرُ لها قمة إعجابها بي بأفعالي ونظراتها.

متكبرة مغرورة صعبة المنال وهذا النوع المفضل لدي من النساء، حالما تقع في شباكي لن يفيدها كبرياؤها لتحلق عاليًا كما كانت من قبل بل يتضائل حجمها أمامي إلى أن أشعر بالرضا التام ولن أُطْلِقَ سراحها أيضًا، دعونا نلقنهن درسًا عن احترام المشاعر وتقديس حدود الغير.

أما الشيء المثير للجدل فكان والدتي، لقد أعمتها أبحاث (سما) عن وسواسها القهري، أصبحت تلامس الخفاش بدون تعقيم ولا تتذمر إذا رأتني غير مبالٍ بالحمَّام الساخن، تقضي ساعاتٍ في البدروم مع سما ولا يعرف أحدٌ ماذا يدور بالداخل. لاحظت صوفي على يد أمي أثر حقن و كدمات متكررة وبدت شاحبة الوجه سمراء الجفون تضاءل حجمها وقلت وجبتها، لم تعد تظهر في اليوم إلا لحظات ولا تخضع للفحص الطبي الأسبوعي، تُطَمْئِن من يسألها أنها على ما يرام ولا داعي للقلق هذه أعراض كثرة السهر وقلة الغذاء تظاهرًا باتباع حِمْيَةٍ ما ! زادت غرابتها حقًا !

تسللت إلى غرفتها بمصاحبة صوفي لأرى ماذا يمكن أن أحصل عليه فقد أعلم ماذا تخبئ لنا أمي من مفاجآت، لم أجد شيئًا يدعو إلى القلق سوى الخفافيش و اسطوانات أفلام (مصاصي الدماء) كلها منذ بدأت أسطورة (دراكولا) حتى أحدث الأفلام والمسلسلات عنهم ! بماذا تنوي أن تفعل هذه السيدة العجوز التي لم يظهر عليها علامات الشيخوخة بعد! ما كل هذه الكمية المريبة من الاسطوانات. كنت أتمنى أن أجدها مدمنة لزجاجات (البيرة) أفضل من هذا الهراء !

توالت الأفكار المؤرقة على رأسي أشعر بشيء غير سوي يحدث في هذا المكان، قررت أن أطلب منها أن تأتي لنخرج سويًا لكنها لم تقبل إطلاقًا وظلّت تخبرني بحجج مختلفة كل يوم! لكن الأغرب من هذا أنها حددت مسافة بيني وبينها للحديث! يجب أن أكون في أول الغرفة وهى في آخرها والعكس يحدث حتى شَعُرْتُ بالغُربَةِ في حضورها، لم تعد أمي أصبحت مسخًا يتجول متخفيًا في أرجاء القصر ..

في المساء، حضر محامي العائلة (شفيق) إلى القصر ليعطي أمي أوراق الأعمال والمشاريع المُقامة بإسمها والأخرى التي أمتلكها ولديها توكيل عام بالتصرف بها لتوقّعَ عليها، يُشْرِف على مشاريعها الجديدة و يُعقم أولًا بالطبع قبل كل هذا.

مضت عشرة أعوام لم أره فيها، أخر مرة رأيته بها كان سمينًا إلى درجة كبيرة لم يكن يقوى على الحركة، شعره خفيف ربما طار معظمه الآن وملامحه دقيقة صغيرة تليق أكثر بطفل رضيع في المهد ..

عندما رأيته صُعِقْت لما قد يفعله الزمن بنا، لقد أصبح العدم بما تحمله الكلمة من معنى، كرمشات العَجز الجلدية زينت وجهه، ملابسه تكاد أن تقع من شدة نحافته و ملامحه كَبُرَت لم تعد كما كانت، جاحظ العينين، دائم التوتر، يبدو كمن يخشى شيئًا ما، بالطبع لن يجد الراحة فى قصر كهذا، الأنفاس به محسوبة كما الخطوات والنظافة الاضطرارية أولى من الشخص ذاته. أما شعره، كما توقعت ذهب مع الريح !

- يااااااه عم شفيق إزيك يا راجل ما عرفتكش

تلقى هتافي بدهشة، لم يتوقع صوت رجل داخل عرين حواء وبناتها الراهبات

- إيه ده مين؟ هو في حد بقا يدخل القصر هنا ولا إيه ؟

- أنا زين يا راجل يا طيب واحشني يا متر فينك وفين أيامك

- زين ! زين مين .. آآآه .. زين العابدين منير الدرمللي

دنوتُ منه معانقًا إياه، ظهرت عوامل التجريد والنحت الزمني على كلينا، أَثَّرَ الزمن بالسلب والإيجاب على الشباب والعجز يجعل الزمن

هو السيد الوحيد المتبقى للحصول على عرش الحكم الأبدي حتى قيام الساعة..

-يااااه يا زين، كبرت يا واد .. واحلويت بزيادة

- إنت اللي كبرت ياعم شفيق إيه اللي دهولك كده بس؟

أطلق تنهيدة طويلة تختصر سنوات عدة وأردف

- الزمن يابني ،الزمن ما بيسبش حد في حاله بيدوس أوي كل ما السن كبر كل اللي انت فيه ده زغزغة بس

- طول عمرك دمك خفيف يا شفشق .. أقولك يا شفشق ولا كبرت على كده ولازم أبص في الأرض وأقولك حضرتك يا فندم

- يا وله يا شقي قولي قدام أمك يا (أبيه) بدل ماتطردني أنا وانت ونلف نشحت في الشارع على شفشق مايه

- انت حكاية وملهاش أخر مش هتبطل شغل التلات ورقات ده

- سيبك مني ومن حكاويا انت ايه اللي رجعك؟ لازم ترجع للهم ده .. ماكنت بمزاجك و عشرة على عشرة

- الكازينو اتباع وما لقتش حتة أقعد فيها أخدت آخر مرتب ونزلت بيه على هنا

- وما بعتتش طلبت فلوس ليه يا أهبل مال قارون اللي انا بحرسه ده مش بتاعك؟ تروح تجيب الكازينو وتجيب أمه

- أم مين

- أم ال طردك

- يا سيدي .. أنا فكرت، بس قولت خليني قاعد هنا شوية ويبقى يحلها حلَّال

- ومرتاح مع أمك؟

- متدهول

- ليه!

- مش عارف طلعالي في موال أزرق وعماله تجيب في خفافيش ليه وتشقلب الحال النهار ليل والليل نهار واللي يخرج بالنهار يتعقم وممكن مترجعوش تاني القصر ماعدا القنصل الطبي بتاعها ده قال ايه واخدين بالهم من صحتهم!

- أمك عندها فوبيا

- فوبيا! فوبيا ايه دي كمان هى ملجأ لكل الأمراض النفسية!

- حاجه كده اسمها (هيليوفوبيا)

- ودي بتاعت ايه دي كمان، هى مش لاقيه إلا الحاجات الغريبة دي عشان تعيا بيها؟

- الهيليوفوبيا دي فوبيا أشعة الشمس بتيجي للي بيخافوا على نفسهم من أذى أشعتها على جلدهم وزادت مع أمك علشان مراتي لما ماتت بسبب سرطان الجلد خافت على نفسها تتإذي واللى زود الحكاية دي وسواسها القهري للنضافه فبقت تخاف من اسمها حتى

- هى مراتك اللي ماتت! مقالتليش.. البقاء لله

- اه يابني ماتت بسبب أشعة الشمس وأنا بقيت لوحدي حتى بنتي بقالها سنين فى ألمانيا بتدرس هناك بس مراتي و امك كانوا أصحاب أوي وبعد ما ماتت، أمك إتدارت عن الشمس من خوفها على نفسها وجيبنا القصر ده، طلع عيني علشان أوصل لمكان متغلف زي ما انت شايف كده

- آه أتاريها... اممم .. طب وبعدين هنعمل ايه فيها تتعالج ازاي؟

- اتاريها ايه ؟

- بتجيب أفلام مصاصين الدماء كلها وبتتفرج عليها

- اه .. لأ ده أنا ال جايبهم لها

- لا يا شيخ!

- أنا أقدر أرفض طلب؟

- عدَّاك العيب ياسيدي، المهم الفوبيا دي ملهاش علاج؟

- تروح لدكتور نفساني أكيد

- وانت فكرك هترضى تروح؟

قاطعتنا أمي بنبرة حادة ..

- تروح فين يا ولد؟ وانت .. إزاي تدخل من غير ما تعدي على الطبيبات علشان يكشفوا عليك؟

- أنا يا مدام منير اتفاجئت بـ زين بيه ف اتلخفنت و ..

- مفيش وا .. إجري يا راجل يا عجوز عالحمام بلاش قرف

نظر إليَّ في سُخرية وقال ..

- أمرك ..

بعدما ذهب .. نظرت إليها معاتبًا

- ليه أحرجتيه؟

- ما أحرجتوش .. هو عارف القوانين مش لازم أعيدها كل شوية

- الراجل غلطان انه بيحمينا طول الفترة دي ومستحمل!

- مستحمل إيه يا ولد! وبعدين كل حاجة وليها حسابها وانت واقف ليه؟ روح بدل ما انت واقف تلم ميكروبات من الجو

ذهبت دون أن أتفوه بكلمة، صعدت الدرج، احتضنت مقبض الباب و أغلقته من الداخل حتى لا يزعجني أحد .. الإهانة تصل إلى البعيد قبل القريب يجب أن أتفاداها ..

في اليوم التالي ذهبت إلى شفيق في مكتبه معتذرًا عما بدر من أمي أمس و اتفقنا على عرضها على طبيب نفسي أو طبيبة بطريق غير مباشر ندخلها القصر في هيئة طبيبة عادية وتتجاذب معها الحديث بمهارتها. طلبت منه إحضارها وتعليمها أصول وعادات القصر وإعطاءها ما تريد من المال كأنها إحدى الطبيبات المقيمات به واكتفيت أنا بالتقرير الذي أراه إسبوعيًا أحدد بصدده حالتها وما وصلت إليه من درجات الشفاء أريدها أن تحيا بسلام في تلك الأيام كفانا إضاعةً للوقت وإهدارًا لمتاع الحياة فلن يتبقى لنا يومٌ نتحسر فيه على ما فاتنا إن المصائب تأتي دون إذن ..

***

(4)

هدأت الأمور لبعض الوقت تمكنت من الخروج والتعرف على أصدقاء جدد عَلِمْتُ بوجود (كازينو) في ممتلكاتنا يُطِلُّ على النيل كان الملاذ الأول والأخير بالنسبة لي، أحضرت طاقمًا من العازفين على آلات مختلفة من دار الأوبرا وبدأنا فى التدريب على المقطوعات الليلية حتى نُرْضِي أذواق الجالسين فيه - كلهم من طبقة راقية - متحضرين و مثقفين يميلون إلى الهدوء والصفاء ..

كان وجودنا نوعًا من أنواع التجديد بدلًا من أجواء الاسطوانات و الشرائط المحفوظة والتي لا تحمل روح العزف على الطبيعة، فالسمع من الآلة مباشرةً في الهواء الطلق له مذاق خاص بعيدًا كل البعد عن التسجيلات الرتيبة والمملة منزوعة الروح والمعدمة من الحياة ..

كنت أهرب ليلًا فيه تاركًا صوفي تجمع لي أخبار اليوم. كنت أحظى بشمس معي حتى إنها كانت في أوقاتٍ كثيرة تقف لتغني وخلفها ألحانًا عذبة وصوتها الملائكي يُطْلِقُ أنغامًا جذابة يدندن بها الجالسون ويتراقص بعضهم علي ألحانها.

أصبح المكان يتصارع عليه الزبائن للجلوس والفوز بما نحضره لهم من صفاء للذهن وراحة للقلب و سكينة للروح. كانت أغنيتي المفضلة

والمحببة إلى قلبي (ليالي الأنس في فيينا) للراحلة اسمهان كانت شمس تغنيها ببراعة وإتقان، تأخذني مسافرًا لأجمل أوقات قضيتها فى عمري كله وأندم على فراقها فى هذه الأيام العصيبة الخالية من المتعة والممزوجة بأوجاع القلب و تشتت العقل. راحتي الوحيدة هى الساعات التي أقضيها عازفًا لـ (ليزا) منصتًا لطرب شمس جالسًا على ضفاف النيل في المساء وقد لمعت صفحته بانعكاس النجوم الساطعة أشكو إليه ضعف بهجتي و شرودي و ذبذبتي كان طبيبي النفسي الأول والأخير كان يشاطرني ابتهالاتي ودموع عيناي، يتلقى نظراتي البائسة مواسيًا يبعث هواءً باردًا مُشَبَّعًا برائحة الطين المبلل تغمرني وتُثَبِّطُ من ثورتي قليلًا ، مسافرًا بين نسماته و نفحات الموسيقى العذبة القادمة من خلفي ..

اقتربت مني شمس في هذه الأوقات، أصبحت محببة إلى قلبي أكثر من صوفي بكثير. هى مرحة مسلية تحاول بقدر الإمكان أن تُزيل الهموم عن قلبي وتسعى بكل الطرق كي تُسعِد الساعات القليلة التي أقضيها معها.

كانت بالنسبة لي الإعصار المُهْلِك أما صوفي فكانت نسيم الربيع العابر. كنت أُفَضِّل الهلاك على الراحة وأهرب من صوفي كثيرًا لا أذهب إليها وأمنعها من المجيء إليّ. حتى ضعفت الأخبار التي تخبرني إياها و قلت بسماتها فأصبحت تعاملني رسميًا طوال الوقت حتى في خلوتنا، تغيرت تغيرًا غامضًا لم أعلم أسبابه فهي لم تكن تريد شيئًا أكثر من وجودي وحديثنا حتى توقفت الأخبار وشككت بها وبدأت أتابع ما

يدور فى هذا القصر من مكائد و تخطيطات لا أعلم عنها شيئًا، أصبحت هى أول أعدائي الذين أنافقهم لأكسب رضاهم في الوقت الحالي حتى أفاجئهم بطعنة مفاجئة جزاءً لغدرهم.

في إحدى الأمسيات الشاعرية الهائمة التي تقام على ضفاف النيل في الكازينو الذى أسميته (فيينا) تيمُّنًا بمعشوقتي الأبدية كنت أجلس أنا و (جاك دانيالز) و سجائري ننفث عن كربنا، نحرق الجو لهيبًا و نسرطنه تأزمًا فلم يعد ليَ ملجأ سواهما و نيلي العزيز. أفكر وأفكر وأُرهِق جمجمتي تفكيرًا يشتد الجو برودة وأشعر بها احتجاجًا لكي أقوم بالطبطبة على يداي وأحضن نفسي خيفةً من ضياعها فى دوامة الانهيارات اللا نهائية الحالية - لقد تعودت على برودة الجو القارسة في فيينا لذا لا يفزعني الجو مهما علت نسماته في مصر - حتى شعرت بدفءٍ يقترب يمحو كل أنواع الضياع التى أشعر بها يخبرني بأنه وطني الذي حرمت منه أعوامًا وها أنا أحرم نفسي منه حاضرًا ولا أرى لي معه مستقبلًا أحاول الابتعاد عنه لكنه يقربني منه حتى النهاية مستسلمًا لا يمل فقط يشعرني بقربه ولا أُقَدِّرُه ..

حوَّطَت ذراعيها بخصري وأسندت رأسها على كتفي واقتربت من أذني هامسة ..

- بحبك يا زين

ابتسمت في هدوء و ربتت على ذراعيها متمتمًا

- أنا عارف

انتفضت متذمرة..

- أنا عارفة انك عارف .. ومش مستنية منك رد على فكرة

أغمضت عيناي في تنغص سارقًا كل الهواء المحيط بي في شهيق صارخ ثم زفرته بهدوء وجذبتها أمامي ماسكًا رأسها بكفوفي ورأسي تقبل رأسها ثم همست مرددًا اسمها مِرارًا حتى اسعفتني كلماتي للخروج من دائرة تأنيب الضمير التي تتملكني كلما أشعر بأنني أستنفذها دون مقابل يُرْضِيهَا ويُرضيني ..

- شمس .. أنا مردوم مشاكل وحوارات بلاش تزوديها أرجوكي

وضعت يدها على يداي الحاضنتين وجهها وأظهَرَت بعضًا من الحنان القاطن روحها..

- أنا ما بزودهاش صدقني يا زين، (بحبك) دي قولتها لما حسيتها بتناديك أنا مش مخططالها، طب تعرف أنا بحبك من زمان من قبل ما أشوفك على الحقيقة شوفت ألبوم صورك عشت كل لحظة فيه ورسمتك معايا في كل لحظة بعيشها تخيلتك سندي، الراجل اللى بيحميني من غدر الزمن من جوز الست اللي طردتني علشان عينين جوزها الزايغة، من جفاء أمي اللى رمتني للكلاب فى الشوارع تنهش في لحمي من غير غطا يسترني، تخيلت نفسي بغنى في قفص جوا بيتك، مجرد خدامة بس جنبك، ماعرفش ليه حسيت بانتماء ليك

،حبيتك لما بصيت في عينك و اتسحبت مني روحي قبل ما تاخدني وتنضفني زي ما أى حد مكانك ممكن يقول، الحب مش محتاج مبررات ولا كلمة بحبك محتاجة مواعيد وأماكن محددة علشان تتقال هى بتسرح كده لوحدها علشان تروح لصاحب نصيبها ولعلمك أنا عارفة علاقتك بصفية ومنكرش اني متضايقة بس أنا بحمد ربنا انك ليا لوحدي لما بتبصلي أو حتى لما بتوجهلى كلام أنا مش عايزة غير ده يا زين صدقني مش بزود مشاكلك ولا ..

قاطعتها واضعًا يدى على فمها وحوطت رأسها بذراعى لتستقر على صدرى ..

- أنا بحبك أكتر منها يا شمس

تنهدت باطمئنان ورأسها يستقر على صدري.

- أنا عارفة

هى موطني يجب الاعتراف. عندما لا تُشكل القيود الدنيوية عائقًا بينك وبين من تشعر ناحيته بأي شعور أيًا كان فاعلم أن شعورك حق ولا ينبغى التخطيط لأخذ قرارات يصرخ بها القلب ليلًا ونهار. اترك نفسك كاملًا لجنون قلبك وامنح عقلك إجازة صغيرة، فقط تمتع بلذة الشعور وسافر معه واستقر على مينائه ثم اجعل عقلك يطالب بالحقوق فأنت بين أيد أمينة تحبك وفقط وتسعى لكي تجعلك تحب، القلب يا سادة أصدق ما خُلق، وُجِد كي يشعر و يحب وأي

شيء أخر خلق كي يعارضه فقط ، فاستسلموا له ثم عاودوا التفكير ولا تنسوا بأنه دائمًا على حق، مهما أخطأ هو على حق ..

***

قررت يومًا أن أذهب إلى المتر (شفيق) كي أطلع على ما أمتلكه رسميًا في هذة التركة الملعونة. لا أجد ما أفعله فنهاري أصبح باردًا وصوفي أصبحت مملة أخرج إلى شمس متخفيًا وأعود متخفيًا حتى يأتي موعد سهرتنا، أستغل كل ثوانيها المعدودة وأعود لأقضى ساعات النهار فى أرق لا استطيع النوم إلا بقربها لكنها تخاف أن ينكشف سرنا الصغير، لذا قررت أن أشغل نفسي بأى شيء آخر غيرها فقط لتبقى معي وكما تعلمون (شفيق) رجل مرح فلن أشعر بالملل معه أقتل الوقت وأقطعه إلى فتات لأبيعه بأرخص الأسعار في أسواق الخردوات.

لكن ..عند ذهابي إلى شفيق بدا غير مرحبًا بي على الإطلاق، قلّت ضحكاته و ارتسم على وجهه الغموض والامتعاض، تنكَّر لبعض المستندات ولم يُطلعني عليها، تضائلت ثروتنا بشكل مريب. أنا أذكر أنها كانت أكثر من هذا بكثير، (مال قارون) كما ذكر لا ينبغى أن يتلخص في كازينو و قصر و قريتين سياحيتين إحداهما في (الساحل الشمالي) والأخرى فى الغردقة. جوابه المبرر في كذب واضح أن أمي قد استنفذت ثروتنا في الأنتيكات والتحف و مرتبات الخادمات و (الكونسلتو) الطبي الدوري كل أسبوع !

حتى إذا قامت أمي بإهدار كل هذا سيتبقى حتمًا ضعف ما يذكره على الأقل ! ..

هل سيجعلنى أضعه في قائمة الشكوك؟! لا أدرى حقيقةً، إنه رجل تربى مع والدي أعوامًا و يمتلك سلطة كاملة منذ عقود على ممتلكاتنا وإدارة أعمالنا إذا طمع في شيء فيحق له أن يسرقه منذ سنين لن ينتظر هكذا، فالسيدة غريبة الأطوار ولا تمتلك الجرأة على أن تجاريه في المحاكم وخِلافُه والإبن متغيب لأكثر من عشر سنوات ولا يطالب بماله ! لماذا إذًا أشك في ولائه ..؟

أين ستذهب الأيام منا فهى ملتصقة بنا إلى أبعد الحدود وكأنها أحد أعضائنا التي لا نقوى على استئصالها على الرغم من شدة إيلامها لنا و إرهاقنا بدائها ..

يفزعنى حقًا مظهر أمي المُزري، لقد قل وزنها النصف تقريبًا منذ أول يوم رأيتها، لا تعطيني صوفي جوابًا مريحًا وأنا أصبحت أشك بها كما تعلمون فعقدتُ نيَّتي على أن أذهب إلى (سما) في معملها المريب بالعًا شوكةً تؤلِمُ حلقي، فكلما مررت بجانبها شعرت بالكُرْه غير الطبيعي وإن أظهَرتُ بعضًا من إعجابي لها فكلما مرت الأيام شعرت بضغينة تكبر كلما رأيتها متكبرة .. على ماذا؟ هى لن تعادل في جمالها جمال معشوقتي شمس ولا بِرِقَّتِهَا التي تكاد أن تكون مُنْعَدِمَة رِقَة البائسة صوفي ولا بغطرستها غطرسة فتيات فيينا أجمع! يا ويلي .. سأجعلك تندمين يا امرأة على هذا الغرور..

بعد أخذ تصريح الدخول إلى وكرها السفلي شممت رائحة خبيثة وكأنها قتلت حيوانًا وتغذت على أعضائه لتوها يداها ملطختان بالدماء و معطفها تلوّن ببقعٍ زاهية. هل رأتها أمي اليوم ؟! بالطبع لا ..

- نعم ؟! .. تؤمر بحاجة

- ايه الريحة القذرة دي!

- مش شغلك أظن مدام منير فهمتك كويس أوي إنك ما تتدخلش في شغلي

- وده بيتي ويحق ليا أعرف كل حاجة بتدور فيه مش جايز عاملة عملة و بتداريها هنا

- ايه الأفكار السودا دي انت جاي منين .. من شيكاغو؟

- ماتعرفيش بتوع شيكاغو دول بيعملوا ايه!

- هه .. هتعمل إيه؟ ..

وقفت تحمل كل ذرات الكبر و الغرور في الدنيا ناظرةً إليَّ نظرة تملق منتظرةً مني الرجوع والانكسار ورفع الراية البيضاء لكنني نظرت إليها في شموخ وأظهرت رحيلي ثم التفتُّ بسرعة البرق صافعًا خدها الناصع بصفعة مدوية أسقطتها أرضًا عند موضع قدماي فقط

لتعلم من هو السيد ومن يحق له أن يُعَامَلَ باحتقار أو لا، فالمعاملة إذا كانت لائقة تُبَادَلُ بمثلها وهذا ما اضطرتني إليه هذه الحمقاء

وقفت تغلي من شدة الغضب، اتسعت عيناها وجزَّت على ضروسها لافظةً بأقبح الشتائم رافعةً يدها لكي تأخذ بثأرها لكنني لففت يدها إلى ظهرها في عنف واقتربت من أذنها وهي تتأوه من شدة الألم قائلًا في تهديد وحزم ..

- تفضلي هنا .. بأدبك .. تغلطي .. تتأدبي ..

صرخت باكية

- انت حيوان مش طبيعي

ضغطت بيدى على معصمها بشدة ..

- ماسمعتش ؟!

- ..... آآه

- بحسب ..

تركتها تسقط أرضًا ثانية ..

- المرة الجاية هتترمي برا ما يغركيش طيبتي في التعامل معاكي دي قرصة ودن صغيرة علشان بعد كده تلزمي حدودك وتعرفي تتعاملي مع اللي مشغلينك كويس

تركتها ودمي يفور غليانًا، لم أقسُ على امرأة هكذا طيلة الخمس وثلاثين عامًا التي مرَّت في حياتي، لطالما عاملت المرأة باحترام فائق و إحساس تام لكنها تستفزني بغرورها وغطرستها ولا أدري حقًا لِمَ كل هذا الكُرْه الذي يتملَّكني أثناء وجودي في معملها والنظر إليها؟! هل تعتقد نفسها (مارلين ؟!) حتى وإن أخذت هيئة (ميجن فوكس) فللِّسان دور في علو المرء و احتقاره ..

اللعنة عليها وعلى سذاجتها، لم أعرف لمَ تدهورت حالة أمي هكذا! ولماذا تزداد سوءًا ولا تُبدي اعتراضًا ماذا يحدث في هذا الوكر الفسيح؟ أشعر وكأنني بصدد كارثة عُظمى ستقصم ظهري و تقصف عمري ولن تريحني في تربتي ..

اتجهت إلى الطبيبة النفسية التى أحضرها شفيق، بدت لا تعرف عن الطب كلمة واحدة، يبدو أنها تحمل شهادة في الثرثرة غير المفهومة على الإطلاق كأنها حفظت جمل مزخرفة بأدوات مهدئة للانفعال تلقى على الشخص الثائر لتُثَبِّطَ من ثورته لكن هذا لم يُفِد معى في هذه الحالة، لعنتها و أسقطت ما كانت تحمله من دفاتر وسبتها هي وعلمها وذهبت ..

أصبحت كالثور الهائج أطيح بكل من أرى في طريقى، فحال أمي وما وجدته لدى شفيق عَكَّرَا هدوئي واسترخائي وحاجتي للعُزلة عن العالم الذي تلمسته عند وصولي ومعرفتي بما سأقدم عليه، أشعر أن الحياة تُسلَب مني رويدًا رويدًا وأنا مقيد لا أعلم ماذا أفعل كي

أجتذبها ناحيتي من جديد. حاولت تهدئة أعصابي لكي أصل إلى أمي في سكينة ولم أستطع، ضربت الباب بقدمي صارخًا فيها ولم أعرف كيف أتصرف حيث وجدت هذه المتغطرسة بغرفتها يتضح أنها روت لها كل شيء حدث وكنت على استعداد لإعادة ما فعلته بالأسفل ثانية (للاستمتاع فقط) ولتهدئة ثورة غضبي العارمة تصرفت أمي بحكمة غير متوقعة منها على الإطلاق أذهلتني حقًا

- اخرجي يا سما

- يا مدام ..

- اخرجي بقولك ..

نظرت إليَّ في امتعاض ضاغطة على أسنانها بقوة حتى كدت أسمع تهشمهم من مكاني ..

- خدي الباب في إيدك ..

أغلقته بقوة أكبر من التي فتحتَهُ بها .. سُحقًا .. سأرُدَّهَا على جمجمتها لاحقًا

- مالك يا زين ؟ متعصب ليه .. فيك ايه

- انتي مش شايفة فيه ايه .. فيه انك بتموتي قدامي وانا مش عارف انتي ازاي ساكته .. وشك إصفرّ والسواد اللي تحت عينك زاد وجود الحيوان البشع ده في أوضة نومك وقعادك جنبه طول الليل وكذا

واحد غيره عندها تحت فُرْجِتِك على كل الأفلام المريبة دي وتصرفاتك اللي بقت مش طبيعية، الإسود اللي دايمًا لابساه، الكلام اللي بقيت اسمعه عنك واللي بيزيد يوم عن يوم ماحدش بقى فاهملك حاجة و حمايتك للمجنونة دي هي ومشاريعها اللي هتولع فينا في يوم كل ده وبتسأليني مالك !

- خلصت ؟

- انتي عايزة تجننيني!

- أولًا أنا كويسة جدًا كمان بس قللت في أكلي علشا ..

- علشان دايت وتخنتي، الكلام ده مش داخل دماغي مفيش أى مبرر ممكن تقدميهولي غير إنك تطردي الزبالة دي من هنا وترمي الخفافيش دي من بيتنا وترجعي زي ما كنتي الأول ..

- حاضر هنفذ اللي إنت عاوزه بس في المقابل هطلب منك طلب لو عملته هنفذلك طلبك

حاولت تجميع شتات هدوئي منتظرًا حلًا مثاليًا يُريح كلينا ..

- عايزة ايه ؟

- روح قضي يومين في الغردقة فُك عن نفسك ممكن تحس براحة زي اللي كنت حاسسها في فيينا وهتيجي تلاقيني طردتهم كلهم ورجعت كما كنت وأحسن كمان

- ومتعمليش كده وانا هنا ليه؟ دلوقتي من غير تأجيل

- حبيبي ماينفعش أقطع عيش الناس بسهولة كده وبعدين أنا عاوزاك تروَّق وكل حاجة هترجع زي ما كانت وأحسن أوعدك فكها بقى .. وغلاوتي عندك ..

- خلاص يا أمي

تركتها مُفَكِّرًا، هل سفري إلى الغردقة سيفيدني لأستجم وأستجمع قواي وأعود لأجد الحياة وردية كما كانت ؟!..

لن أخسر شيئًا حتى على سبيل أن أُعطي نفسى راحة من هذا العناء الشاق سأسافر أنا وشمس، سأجعل تلك الأيام القادمة مُشْرِقَةً، لن أُعطي لها فرصة لأن تراوغني و تنتصر عليّ، سأنتصر على كل أساليبها لتعكير صفو الحياة ..

أبلغنى شفيق بأن هناك قرية جديدة قيد الإنشاء سأذهب لأجعلها قطعة من فيينا ولتذهب أمي و خرافاتها إلى الجحيم ..

***

حزمت أمتعتي واتجهت إلى المطار - شمس تريد تجربة السفر بالطائرة والتحليق عاليًا - لذا قررت أن أمنحها كل ما تتمنى. عند وصولنا أرض المطار تذكرت أنني نسيت (ليزا) فبدأت الامتعاض، لم أبدأ يومي حتى يظهر لي هذا الحظ السيء، لم تشأ شمس أن تتركني أُعاني

هكذا و أصرت على الذهاب لإحضارها رغم أننا اتفقنا على السفر سويًا، ستفوتها الطائرة لكنها أبت، وعدتنى بأن تأتي في الرحلة التالية حيث أن هناك مستثمرون ينتظرونني ولا يليق تأجيل أعمالهم الأولى معنا هكذا. أجبرتني على تركها تذهب. يُذْهِلُنِي فناؤها في إسعادي وأنا ممتن لهذا كثيرًا .. حقًا ممتن.

لم أشأ أن أتركها تذهب هكذا. بعد أن عبرت بوابة الخروج هرعت إليها وناديتها بصوتٍ مدوٍ سَمِعَ صداه كل من وُجِدَ في المكان ولا أدرى إلا وأنا أحتضنها بقوة وسط أعين الحاقدين والشامتين ولم أُبال .. فقط أخذت جرعة من هذا الدفء الشافي الذي تمتلكه وحدها، شعرت بأنها الضمة الأخيرة تلاعبت الدموع في عيناي ولا أدرى لِمَ!؟ لكننى داريتها و حاولت ثانية أن أقنعها بعدم الذهاب لكنها رفضت وتركت يداي وذهبت مع آخِر نداء لطائرتي ركضت إليها وقلبي واقفٌ في محله لا يريد الذهاب لا أعلم لماذا يضطرب هكذا؟! فهى تعلم كيفية المحافظة على سِرِّهَا ولن يكتشفها أحد ..

وصلت إلى القرية وإلى المستثمرين، جلسنا سويًا لنضع اللمسات الأخيرة على الخطط التي عمل عليها موظفو شركاتنا مسبقًا ثم وقعنا على العقود، كنت أحسب الدقائق حتى أطمئن على شمس وليزا. (شمس) أولًا ثم ليزا ثانيًا، الأن فقط كرهت ليزا ولأول مرة في حياتي أسُبَّهَا وألعنها. حجزت لشمس في طائرة الغد سأنتظر يومًا كاملًا بدونها وأنا ذاهبٌ لأجلها منذ البداية.

أقنعتني بأن أحاول السهر والتأقلم ونسيان ماحدث. انسَقْتُ مع قدماي، أخذتُ الشاطئ ذهابًا وإيابًا يُداعبني اليود في أنفي و يدغدغني الموج في قدمي وتلاطفني الرياح لأبتسم ولم أستطع ! مهاتفتها لكي أسمع صوتها أجابتني ناعسة وأغلقت على عجلة منها أردت سماعها فقط وهي تهمسها في هذا الجو الحالم الذي لا ينقصه سوى وجودها، يجب أن تسري هذه الكلمة إليَّ لتغمسني في الأحلام قالتها وابتسمت وأنهينا المكالمة على أمل الاستيقاظ لتبدأ أولى أيامنا في الجنة ..

بعد (أفيونة) الحنان التى تلقيتها اتجهت إلى بار لأتجرع كأسًا من (الواين) الأحمر الخفيف وألوث هذا الهواء النقي ببعض السجائر القاتلة وأجلس منتظرًا شمس الحياة أن تَفْرِدَ أشعتها الصاخبة الممتلئة بالعطاء اللا نهائي على كل متلقٍ لها ..

أخذت دون قصد زجاجة مياه لشخص يجلس بجانبي معطيًا لي ظهره، مد يده ليأخذ زجاجته وجدها في فمي نظرت إليه معتذرًا فابتسم مسامحًا حتى تخشَّبَت ملامحُ وجهه وتهللت فرحًا و ألقى كأسه التي يشربها وصرخ عاليًا..

- زين .. زين الدرمللي .. مش ممكن .. مش مصدق

تقطب جبيني واضيَقَّت عيناي مُحاولًا عصر عقلي لإخراج صورته من جوف الذاكرة حتى لا أظهر بمظهر الأنذال ناكري العشرة أمامه ..

- ياسين ! مش ممكن .. أنا اللي مش مصدق يا راجل

- صدفة بمليون جنيه

- مش أى صدفة أنا حاسس إنى لقيط ياعم وانت اتبنيتني

تبادلنا أحضان العمر المهجورة شعرت وكأنني أخيرًا وجدت ملاذًا بعد ضياع دام لعدة أشهر أفتقد جلسات الشباب فهى تحمل من المتعة أضعاف ما تحمله ليالي الأنس مع النساء .. أو ربما قليلًا ..

محمد ياسين من أكفأ الطلبة اجتهادًا في (شلتنا) القديمة برع في الوصول إلى كلية الطب رغم انحرافه المأخوذ من صحبته لنا، كنا لا نتعدى الخمسة أشخاص نجلس كل ليلة نعزف ونشرب إلى الصباح حتى يأتي الليل ونعيد الكرة.

أفضل من عزفوا على الجيتار أمامي و أمهر من يرتجل لحنًا شاعريًا حالمًا، جلسنا الليل بأكمله نتحدث ونسافر بالزمن مستخدمين عجلاته المُتهالِكة لنضحك على ترهُّلاتِهَا و ندعو لأيامه الزائلة بالعودة من جديد

- وانت تخصصك ايه يا باشا

- نفسي يا معلم

- طول عمرك بتحب الفلسفة

- فلسفة ايه بس .. ده مزاج .. المرضى النفسيين دول عالم تاني .. حواديت مختلفة .. و جو شاعري مع كل حدوتة بدل القرف والعك بتاع الدكاترة بتوع الحقن والتحاليل والقرف ده

- على رأيك .. وبتشتغل فين

- العباسية

- أجدع ناس ..

تعالت ضحكاتنا حتى وجَّهَ إليَّ السؤال الذي لا أريد الرد عليه في هذا الوقت .. خصوصًا بعد كم المرح غير العادي الذي غمرني ..

- انت ايه حكايتك بقى غيبت وقولت عِدُّولِي .. وجيت فجأة كده من غير مُقَدِّمَات .. إحكيلي ..

بعد حديث دام ساعة كاملة عما جرى لي في أخر خمسة أشهر فقط ..

- ده انت عايز دكتور نفسي

- الحقني الله يخليك

- بس قولي الدكتورة اللي بتعالج أمك نفسي دي عملت ايه ؟

- كل ما أسألها تقوللي بنحاول وبنتكلم ومش عارف ايه لحد ما شتمتها ومشيت

- بيتكلموا في إيه هي بقالها قد ايه بتقعد معاها

- ييجي شهر ونص كده

- كل ده بيتكلموا! ما عرَّضِتْهَاش للشمس مره أو فكرت تصحيها مرة على ضوء شمس أو حاجة؟

- لأ طبعًا يا إبني .. أمي ما تعرفش إنها دكتورة أصلًا

- هى الفكرة كويسة لإنها لو عرفت إنها دكتورة هتدبحها. مرضى الوسواس كده مابيقتنعوش بالمرض ولا الدكاتره ، بس هى كده مابتعالجهاش، مرضى الفوبيا عمومًا لازم يتعرضوا لمسببات خوفهم بالتدريج .. حالة أمك خطيرة .. إدمانها للأفلام والخفافيش والضلمة ممكن يخليها في يوم تقلبلك دراكولا ولا حاجه ويجيلها فصام .. وساعتها هتمص دمك يا برنس وتروح انت وأمك فطيس

- فطيس

- أه

- الله يطمنك، بس ايه كل ده؟ مرضى الوسواس والفوبيا والفصام وزود معاهم كمان الوسواس القهري، دي حفلة!

- كل ده طبيعي يحصل بسبب اللي حكيتهولي ، الست لوحدها والوسواس درجاته معاها عالية، ولما صاحبتها ماتت الخوف نبت جواها وزاد بكمية الأفلام وعدد الخفافيش اللي كِتْرِت عندكوا دي! انا مش فاهم كل ده حصل إزاى والتطور الرهيب للفصام ممكن

يحصل في أي لحظة، بص أنا هقولك تعمل ايه مادام ما ينفعش أتعامل معاها أنا .. وهنحلها إن شاء الله

- ياريت .. ده أنا استويت خلاص

- اشوفك الصبح يا معلم

- لا انا رايح المطار

- انت لحقت

- لا هجيب.. امم ...

- هتجيب مين

- هه .. مراتي .. هجيب مراتي

- انت اتجوزت تاني .. ألف مبروك يا سيدي

- الله يبارك فيك بس جوازة سُكيتي كده .. أمي لو عرفت ممكن تقتلها

- ليه !

- اسمها شمس

- ضحكتني يا فقري إنت وامك .. ماشي يا عريس .. ابقى كلمني

***

obeikan.com

استيقظت من حلم يقظة رسمه عقلي الباطن المتعب من ضلالات الواقع المخزية، حاولت استجماع قواي العقلية والجسدية. أن تُطْرَدْ من الجنة لتتذوق مُوجِعَاتِ الجحيم أمرٌ يَصْعُبُ تصديقه فعليًا كيف لإنسان استسلمت له الدنيا بكل ما تملك طواعية أن يُفاجَأ بأنه كان يَحْلُم فقط وعلى النائم الاستيقاظ . جاءت نوران إليَّ تحمل ابنتي على يديها تلعبان بسعادة غامرة، تَشُدُّ يداي لأذهب معها إلى جنتها؛ إلى عالمها وأنا أستسلم لها كطفلتنا الرضيعة منساقًا خلف عواطفي. أعطتني طفلتي رأيتها لأول مرة تلتقى عيناي بعينيها، تحمل من البراءة ما يعادل براءة أطفال العالم أجمع مزدانة ببراءة ملائكية ساحرة، تشبه أمها إلى حدٍ مُخيف لم أرَ طفلًا في المهد يتشكل بهذه السرعة ويحمل الجينات السائدة والمتنحية أجمع! ..

تركتني ألعب مع طفلتنا ناظرة إليَّ في ألم، تأوَهَت و لم أسمعها، ازداد صوتها تدريجيًا حتى وصلت حد الصراخ نظرتُ إليها مشدوهًا، لم أرها، لم تعد هي، تحولت فأصبحت أُخرى شبيهة لها تجلس تصارع الألم . مهلًا .. إنها شمس ! .. تتألم بشدة وتصرخ بقوة حاولت الذهاب إليها حاولت مساعدتها لكنني لم أستطع نظرت إلى طفلتي وجدتها تتلاشى تبخرت إلى العدم جاهدتُ قدماي لكي أصل إليها لكنها ثبتت في الأرض بقوة كشجرة تمتد جذورها إلى الأرض السابعة ..

لم أدرِ بنفسي إلا وأنا أصرخ مُنَادِيًا إياها واقفًا في نفس المكان الذى كنت أقف به في كابوسي المريع ..

لم أبلع ريقي، أسرعت إلى الهاتف اتصلت بها لم تُجِب، عاودت الاتصال لم أسمع سوى صوت الجرس الممل كررت اتصالي بها للمرة المائة لا جديد. اتجهت مسرعًا إلى هاتف الفندق حجزت أول طائرة عائدة إلى القاهرة وحملت هاتفي و هرعت بدون تغيير ملابسي إلى الباب وعندما فتحته لأذهب وجدت آخِرَ شخصٍ تخيلت أن أجده أمامي !

- رايح فين يا زين يابني

- شفيق ! .. انت ايه جابك هنا

- المستثمرين كلموني و طلبوا شوية تغييرات في العقد قولت آجي قالولي انهم اتصلوا بيك عشان يحددوا ميعاد وانت ما ردتش اتصلت بيك بردو ما ردتش قلقت جيتلك وأنا عندي أعز منك ؟

- بس انا مسافر دلوقتي

- مسافر فين؟

-راجع

- ليه؟

- كده .. شغل .. شغل في الكازينو ولازم اروح

- متشغلش بالك أنا هتصرف، المستثمرين هيسافروا أي حاجه ممكن تتأجل إلا ده

- اعمل اللي انت عاوزة يا شفيق التوكيل معاك

- ما ينفعش إسمع بس هما طالبينك .. لازم تقعد

- بس

- مفيش بس .. انت جيت يبقى اتحمل مسئولية بقا ولا ايه

لم أستطع الإفلات منه فأي حجة سأقولها سيضع أمامها ألف حل، لا أملك سوى الهاتف والانتظار وكلاهما يجلب الصداع النصفي للرأس من كثرة التفكير..

مر الوقت كسلحفاة تصارع الموت تنتظر ألف سنة ليطلق رصاصة الرحمة ويخلصها من عنائها الباقي .كدت أتوسل إلى عقارب الساعة لكي تعلن رأفتها بحالي وتتحرك، كل شيء يعاندني لم تصل شمس على متن الطائرة التى حجزت بها أمس ولم تجب على اتصالاتي وأصبح كل شيء أمامي يحمل لونًا واحدًا لا يتغير .. أسود قاتم لا يُنْفِذُ الابتسامات . كان شفيق يتحدث بكثرة ثرثرته فاقت حدود التحمل موعد الاجتماع الذى يُقَيِّدُنِي تأجَّلَ للمساء، انتظرت في

غرفتي مع رجل مسن كثير التبول بفعل مرض السكر الذى قضى عليه بلا رحمة ..

لم أُخرِج من فمي سوى كلمة واحدة تُجيب على كل أسئلته التي لم أسمع منها حرفًا واحدًا (آه) مريحة تخرج من فمي تارة لتصل إلى أذنه مؤمنةً على ما يقول وتخرج من أعماقي تارة أخرى لتهديء ثورتي الداخلية.

عندما أراها سأمزقها حتمًا، ما كل هذا القلق الذي يؤرق يومي؟ لماذا أشعر وكأنها الوحيدة في حياتي هل استطاعت الفوز بقلبي؟ هل تخطَّت كل حواجز المستحيل المُقامة بداخلي وتربَّعَت على عرشي و تملَّكَت إحساسي إلى هذا الحد؟ لماذا لقَّبتُها بزوجتي أمس؟! لماذا احتضنتُها بقوة في المطار وكأنه العناق الأخير؟ لماذا يشغلني غيابها إلى هذا الحد؟ إنها امرأة مثل الأخريات !

أريد تصنيفًا لحالتي هذه في كلمة واحدة مريحة لكنني لا أجد سوى الكلمة التي لم أقلها إلا لها بعد أن نسيتها عِقدًا كاملًا (بحبك) ! ..

لم تدرِ وهى تقارن نفسها بـ (صوفي) أنها أول امرأة تسمع مني هذه الكلمة من صميم قلبي بعد زوجتي (نوران) ! وصراحةً .. أنا لا أعلم كيف تسربت من داخلي وخرجت إلى أذنها ..

الآن لن أدع الأيام تثبت لي حقيقة ما أشعر سأُثبِتُ أنا بنفسي هذه المرة فالاتكال على الغير مذلة لا تنتهى .. أبدًا

انتهى الاجتماع في الثانية عشر بعد منتصف الليل لم أنتظر حتى أسمع تُرَهَات شفيق واتجهت مسرعًا إلى سيارة قد طلبتها قبل عقد الإجتماع طِرْتُ بها من القرية وحتى القاهرة لم أستطع الانتظار ليحل الصباح فأحجز مكانًا في طائرة، لا أقوى على الهدوء وانتظار الروتين الممل للسفر بالطائرة و جلوسي على مقعد بارد لساعة أصارع فيها الوقت والانتظار والأفكار و اهتزازات قدمي ويدي اللا إرادية. قيادتي للسيارة حرقت كل أنواع الملل حتى أنني وصلت أسرع مما كنت أتخيل ..

ذهبت إلى الكوخ وجدت ليزا على سرير شمس وكأنها تستعد للرحيل، المكان يشهد صراعات قامت لتوها، حقيبتها كما هى تفقدتُ الأرجاء لم أجدها حتى في القصر سألت بعض الخادمات لم يُظْهِرُوا معرفتهم باكتشاف شخص غريب، أخذت السيارة إلى الكازينو وسألت كل العاملين به عنها لم يرها أحد منذ كنا سويًا آخر مرة !

اشتعل رأسي من كثرة التفكير ذهبت إلى القصر وأخذتني قدماي إلى والدتها، لم أشعر إلا وأنا أسألها عنها ربما هى من اكتشف وجودها وطردها بعد مشاجرة عنيفة وهى تماطل و تعاند و تتظاهر بالبراءة والطهر وأنها لم تتزوج لتلد، لم أشعر بيدي إلا وهي تحمل لسعة الضرب، فلقد صفعتها وأسقطتها أرضًا. أصبحت مجنونًا ثائرًا، صعدت إلى أمي لأتفقد ما إذا كانوا قد اكتشفوا وجودها و طردوها وأخفوا ذلك عن باقي قاطنات القصر، فلم أجدها، أخذتني قدماي إلى البدروم، وكر الثعلب المسعور، دخلت و بركان من الغضب

يلازمني وقبل أن أضرب الباب بقدمي سمعت صوفي تصرخ و سما تُهَدِّئُهَا حتى أمي كانت حاضرة تتنفس في خوف كأنهن قمن بجريمة نكراء لتوهن، لم أشأ الدخول حتى لا أسمع الإنكار. تنصّتُّ إلى حديثهم و صُعِقتُ مما سمعت ..

شموس :- انتي أخدتي منها دم قد إيه يا مجنونة كده هتموت ..

سما : - زي كل مرة والله يا مدام مش عارفة جرالها ايه .. إنتي يا صفية ماديتهاش العصاير اللي قولتلك عليها

صوفي : - انتِ ماقولتيليش حاجه انتِ هتجيبها فيَّا ليه

شموس : - انتو هتتخانقوا شوفي حل بسرعه للمصيبة دي البنت بتموت

سما: - مش هعرف اتصرف يا مدام منير لازم دكتور النبض خفيف أوي

شموس : - إحنا لو جبنا دكتورة من فوق ماننكشفش يا سما؟ مش ممكن الدكتوره تعرف اللي عملناه فيها وتسأل ليه وتتعرف الأدوية والكيماويات دي بتسبب إيه؟!

سما : - هه .. أأ .. أه .. لأ بلاش دكتور

شموس : - خلاص اتصرفي انتي جبتيها منين دي يا صفيه؟ ملهاش أهل؟

صوفي : - هه .. لأ .. ملهاش .. أنا لقيتها جنب الكوخ بتاع زين بيه و افتكرتها حرامية

شموس : - زين ! .. يعني انتي جيبتي واحدة ممكن يكون ابني يعرفها ! علشان نجرب فيها العملية إنتي إتجننتي؟ ..

صوفي : - ما أظنش إن زين بيه يعرفها هيدخَّلْهَا إزاي ! ولو يعرفها ما أخدهاش ليه معاه؟ دي هدومها مقطعه وشكلها من الشارع

شموس : - هدوم ايه اللي متقطعة، البنت شكلها مايدلش إنها من الشارع. انتي متأكدة انها ممكن تكون ماتت يا سما؟

سما : - مفيش نبض قَلّ أوي مش عارفة اعمل حاجة

شموس : - طب حاولي معاها تاني. أكيد في حاجة، يعني لولا فكرة صفية كان زماني أنا اللى ميتة!

سما : - مفيش فايدة صدقيني الغلطة مش مني

صوفي : - أنا عندي حل ناخدها نرميها برا القصر و هي كده كده حرامية يعنى محدش هيعرف مكانها

شموس : - صفية بتتكلم صح حطيها في شوال وروحي معاها ارموها في أى حتة بس بسرعة قبل ما حد يحس بحاجة

انتفض جسدي وانشق قلبي عند سماعي حوارهم لقد قتلوا شمس ! إحساسي لم يكن كاذبًا ونبوءتي كانت صادقة، لم أستطع مواجهتهم لن يخبروني الحقيقة وسأخسر أمي حتمًا في هذا الصراع

عملية ! أيُ عملية ! وكيف خانتني صوفي إلى هذا الحد؟ لم تهدأ تساؤلاتي اختبأت منهن حتى أتتبع صوفي وسما وهما يواريان شمس عن الأنظار، لا تستحق هذه النهاية أبدًا ..

ألقوها في منطقة مهجورة تبعُد عن القصر بعشر دقائق بالسيارة وعندما ذهبن اتجهت إليها، أخرجتها وبكيت بكاءً حارًا على هيئتها، ذَبُلَت في يومٍ وليلة ! آثار حَقْن تجتاح عروقها، سواد يسكن جفونها وبرودة الثلج في جسدها. أعِدُكِ أنني سأنتقم منهن أشد انتقام .

***

ذهبت إلى القصر في مساء اليوم التالي متظاهرًا بالعودة أخيرًا من الغردقة، اتجهت إلى غرفتي وبدَّلتُ ملابسي ثم ذهبت إلى والدة شمس وطردتها من القصر شر طردة، فهي لم تكن أمًا في يوم من الأيام. كيف لأم أن تترك رضيعتها لأبيها جريًا وراء المال؟ وعندما عاندها الزمن ولم يعطها المال فرت إليه تتوسل ليعطيها ابنتها ويتركها تعيش معهما بسلام لكنه طردها فظلت تأكل من فُتات الشوارع حتى استطاعت أن تفوز بعملها في القصر وعندما أتتها لاجئة بعد موت أبيها تنكرت لها لتظل تهنأ بالعيش في الجنة التي حرمتُهَا منها لتوّي ..

وصلت إلى غرفة أمي كانت ملامح وجهها تظهر عليها علامات التوتر والقلق حتى كلماتها كانت تخرج مذبذبة وبين كل كلمة و ما بعدها كانت تبلع ريقها في ألم ..

موت شمس يقف كالشوكة في حلقها لن تستطيع انتزاعها أبدًا ..

- انت جيت إمتى يا زين؟

- ما نفذتيش وعدك

- هه.. هنفذه يا حبيبي بس اصبر عليا أنا مالحقتش إنت جيت بسرعة أوي

- ما لحقتيش إيه هي جريمة؟ ولو جريمة .. كان زمانك نفذتيها

- جريمة .. ! جريمة إيه يا زين؟ .. بتتكلم كده ليه؟

- ولا حاجه إعملي اللي يريحك اللي يريحك يا أمي

نظرت في ألم ترتعد بداخلها محاولةً إظهار بعضًا من التماسك أمامي لكنها فشلت ولم أتفوه بكلمه ..

اتجهت إلى غرفتي لأفكر ماذا سأفعل حيال هذه الكوارث التي انهالت على عاتقي تباعًا بدون أية مقدمات .. سَكَنَتْ عقلي و تدفئت بخفقان قلبي ولم تدفع الإيجار. اللعنة على كون الحياة سقيمة إلى هذا الحد

***

(5)

أسندت ظهري إلى الحائط المجاور لسريري وقمت بضرب رأسي مرارًا فيه علّه يفيق من نوبته الكارثية اللا نهائية أو لعلي أجد حلًا مُخَبَّئًا بين ثنايا عقلي الأملس غير القابل للتفكير. حينها رأيت مقبض باب غرفتي يتحرك كأن أحدًا من الخارج يحاول فتحه لكنه حبيس التردد، تيبست أطرافي و تجمدت عيناي على الباب منتظرًا ما يخبئه لي القدر من مفاجأت. منتظرًا لحظة الإعلان عن كارثة جديدة. أخيرًا، أخذ المتردد القرار وقرر الابتعاد عني وعن غرفتي وتركني أرقد بسلام..

حتى فُتِح الباب فجأة كأنه يُصِرُّ على إفزاعي، دخلت ممرضة من الممرضات العاملات بمشفي القصر تلتفت وراءها في خوف حتى أغلقت الباب وبدأت في البحث عني. لم يدفعني الفضول لكي أقف مهتزًا شاتمًا دخولها غير اللائق هكذا ولم أنظر حتى إلى تفاصيل وجهها لأحلل نيتها فقط أعطيت كامل تركيزي في خبطاتي المتكررة على حائط الغرفة منتظرًا ما ستقوله من مبررات ..

طالت فترة صمتها ولم أرفع عيني إليها إذا كانت تريد الاختباء من شيء فلتختبئ، لا أقوى على مجاراتها في حديث لا يحمل معنى ولا يريح عقلي المشتت. حتى اقتربت مني ونظرت في عيناي كأنها تنتظر مني سماحي لها بالكلام. بعد هذا الاقتحام، نظرت إليها مُجبرًا ..

- نعم؟!

كانت تحمل شعرًا مستعارًا في يدها ومنديلًا مبللًا تمسح به على وجهها لتُزيل به قناع التجميل المزيف الذي يحيطه. كانت تنظر نظرة أسف على حالي ممزوجة بنظرة عتاب بسبب تجاهلي إياها. كيف يتجاهل المرء أولى ذكريات صباه مع فتاته الأولى. أيام المراهقة المشبعة بالعواطف الجياشة والأحاسيس المرهفة وهى كانت أولى نزواتي، ابنة السائق .. التي كانت تُلَوِّنُ أمسياتي وجولاتي الليلية مُسْتَقِلَّة عربتي تجلس بجانب أبيها ويجلس بجانبي قلبها. لم يكن غيرها يؤنس وحدتي في القصر بعد غياب جميع أبناء الخدم. وهي من كانت تُيَسِّرَ لي هروبي لأخرج مع أصدقائي وعندما طلبت أن أتزوجها طَرَدَتْهَا والدتي هى ووالدها حتى لا ينكسر شموخنا أمامهم ..

- إتغيرت أوي يا زين

- فريدة !

- أيوة فريدة .. فريدة اللي دايمًا كنت حاططها على الهامش ومش مديها أي اعتبار..

- يااااه .. أنا كنت نسيتِك

- وإنت من إمتى افتكرتني ..

- ما تقلبيش اللي فات الله يباركلك أنا اللي فيَّا مكفيني

- علشان كده أنا جيتلك

- مش فاهم

- أنا هعمل بِأصْلِي ومش هسيبك على عَمَاك لولا إني كان نفسي لما شوفتني أول يوم جيت فيه تفتكرني وتديني شوية اهتمام .. بس انت استكبرت واتكلمت بأسلوب بايخ أوي ..

- ما انتي كمان لابسالي باروكة وحاطالي لينسيز و مغيَّرَة لون بشرتك هفتكرك ازاي، ده غير انه كان يوم منيل لما شرف سعادة البيه الوطواط!

- أمك لو كانت عرفتني ماكانتش رضيت تشغلني في القصر وانا كنت عاوزة أبقى جنب أي حاجة توصَّلْنِي ليك أعرف أخبارك حتى يا زين.

- خلاص يا فريدة قولتلك ماتحاوليش تعيدي اللي فات أنا ما صدقت لقيت حد أعرفه أنا حتى أمي مابقيتش عارفها

- ايه اللي خلاك تمشي أمك اتجننت بتفكر تتحول لفامباير! .. إنت مُتَخَيِّل الكارثة؟

قالتها ضاحكة في استهزاء ..

- ايه الهبل اللي بتقوليه ده؟!

- والله العظيم ما بكذب جابت سما دي علشان تساعدها في الحوار ده. سما رسالتها على نوع معين من الخفافيش .. وهو ده النوع اللي ممكن يمص دم البشر زي مافهمت فهى قررت ونوت تتحول وتبقا زيهم

- استنى بس ايه العك ده؟ الكلام ده مايصدقهوش المجانين قبل العاقلين أساسًا!

- أمك كانت أدمنت أفلام مصاصين الدماء وبعتت المحامي بتاعكو يسأل لها على حد رسالته بتقوم على الخفافيش وجابلها سما.. ده اللي فهمته من طراطيش الكلام

- شفيق .. شفيق اللي جابها !

- ايوه .. ودايمًا بيروحلها البدروم في الدِرَا من غير ما حد يعرف حتى أمك ما تعرفش، لاحظتهم كتير

- مش قادر أصدَّق اللي بيدور في دماغي

- أيوة يا زين أمك عاوزة تبقى خفاش

ضحكت ثانية وأنا لم يصبني سوى الجنون من إثر حديثها، رمقتها غاضبًا

- ايه الجنان ده! للدرجة دي الموضوع وصل بها للفصام!

- مانت عارف إن أمك مجنونة .. لا مؤاخذة يعني

- والعمل؟

- أنا قولتلك وبس اتصرف انت بقى ولو احتجت أي حاجه قولي أنا جنبك ومش ناوية أتخلى عنك في ظروفك دي

- انتي بنت حلال يا فريدة وبتقدَّرِي العشرة، أكيد هحتاجلك

يبدو وأن القدر أخيرًا بدأ يتصالح معي وقبل أن يمر الوقت ويعلن فوزه عليَّ سأطعنه في ظهره شر طعنه ليعلم أنه مِلْكي ولستُ أنا ..

***

استقل الانتقام الحافلة الموجهة إلى قلبي وسكن حافة صماماته بحيث لا يترك نبضة إلا ويطبع عليها بصمته التي تمر بجسدي تحرقه غيظًا وتبتره انتظارًا..

(سما) و (صوفي) سيتلقيان طعنة غدر لا تحمل للرحمة عنوانًا. العذاب على من أعلن العصيان وتمرد في حدود الأدب - ربما لن تنفعنا أخر جملة في هذا السباق -..

حبست نفسي داخل غرفتي يومين دون طعام أو شراب أتظاهر بالنوم طيلة الوقت وكلما مرت علي أمي وجدتني أسكن الفراش مطفَئًا للنور متخذاً من الظلام صديقًا. إنها مريحة حقًا تخرج ما بداخلك من طاقة على هيئة خيالات تنير العتمة وتشرق العقل و تدفن الآلام.

رسمت خططًا كثيرة كلها تهدي إلى الدم أحببت كل أفكاري و خططي وقررت تنفيذها كلها دفعة واحدة. الانتقام بأبشع الوسائل هو أكثر شيء يُرْضِي قلب تهشم من كثرة الابتلاءات. بين كل خطة وأختها تظهر لي شمس غير راضية فأفكر بشيء أكثر دناءة كي أرضيها ..

الموت .. راحة تأتي لمستحقيها من البشر الذين أهلكتهم الحياة لذا لا يفيد الموت في هذه الحالة ..

إيقاظ الضمير .. رُقِيّ، يَصِلُ إليه عِلْيَةِ القوم إذا أذنبوا في حق أنفسهم .. ولا يكون الضرر جسيمًا لذا .. لن يفيد هو الأخر ..

البكاء .. طهارة تغسل صاحبها وتُنَقّيه من حقارته حتى يولد من جديد ممتلئًا تفاؤلًا وحبًا للحياة - لن أترك لهن قطرة من الدموع يغسلن بها دناءتهن.

تشابكت أنواع العذاب كافة والتحمت أمامي لتُشَكِّلَ هيكلًا من هياكل الإنتقام الخرافية تأخذ أشكال الأسلحة تارة و الحيوانات البرية الضارية تارة أخرى حتى قررت أن آخذ بثأري و ثأرِ أمي و شمس بمثل طريقتهن التي نصبن بها علينا ..

سأجعل كل واحدة منهن تصرخ بداخلها دون أن يستمع أحد إلى صراخها وإن برزت العروق في الوجه من شدة العذاب سأُمَزّقُهَا حتى لا تُعاوِدَ الظهور ..

أصبحت من شيكاغو الأن أيتها الشمطاء .. سأُريكِ ماذا يفعل سفاحوا البلد بالصغيرات المتمردات أمثالك ..

أما أنتِ يا رقيقتي الحسناء سأذيقك عذابًا من نوعٍ أخر أشد ظلمًا من أبيك وأمك سأجعلك تذكرين اسمها فقط لكي تعفو عنكِ ولن تفعل ..

في صباح اليوم الثالث وقفت أمام المرآة حاولت استجماع قواي، ضربت وجهي بالماء مرارًا، لم تتغير ملامحي، ظل الشحوب هو المسيطر الأول والأخير عليّ حتى ذقني تركت لها العنان كي تنفث عما يحتويه هذا الوجه البالي الذي يكاد يظهر معالمه في ألم ..

ارتديت ملابسي واتجهت إلى سيارتي، لجأت إلى عجلاتها كي تُخْرِجَنِي من هذا القبو واتجهت مسرعًا إلى (ياسين)، لم أذكر أنه كان وجهتي الأولى لكن سيارتي قادتني إليه، استندت على الباب موقظًا لجرس شقته. خرج إليَّ مُتثائِبًا فاليوم هو يوم عطلته وبعد الترحيب الحار الذي يحمل عنصر المفاجأة جلست معه ساعتين كاملتين أحكي له عن ما حدث لي من يوم عودتي من فيينا وحتى وقوفي أمام بيته مستغيثًا ..

أظهر علامات الدهشة والحيرة والقلق دفعة واحدة، لم يتعجب من تفكير أمي فلقد تنبأ بهذا مسبقًا لكنه تعجب من جهل (سما) وكان رده التلقائي أنها تستغل ثروتنا لتقيم مشروعًا ما ليس إلا، يستحيل أن يصل التفكير بإنسانٍ ما إلى هذا الحد وهو يحمل من العلم ما يكفيه بأن يحكم على الأمور و معتقديها مبررًا حالة أمي بالهوس

الذي أصابها نتيجة تداخل الأمراض لديها. الوسواس القهري ثم الفوبيا وأعراضها التى طرأت عليها وعاداتها الجديدة التى اعتادت عليها، الظلام الدامس، الجلوس بجانب الخفافيش ومشاهدة أساطيرهم التي قذفت في عقلها المريض فكرة التحول, مساعدة من يحيطون بها لأفكارها وهواجسها، سما وشفيق وباقي خادمات القصر. أدّى كل هذا إلى إصابتها بالهوس بفكرة التحول وتمكّنُ تلك الخُرافات من عقلها المريض بالفصام ..

و كان آسِفًا على ماحدث لـ (شمس) و جاء تحليله لموقف (صوفي) بالغيرة النسائية الطبيعية فبعد أن تربعت على عرش صاحب الثراء وتملَّكَهَا عقل ربة عملها ظنت بأنها ستفوز بكل شيء أخيرًا ثم تظهر لها فجأة غريبة تحتل مكانتها وتروِّض (زين) لها وحدها غير مستجيبًا لأنثى غيرها أصابها بشحنات غضب نسائية نابعة من تيارات الغيرة ثم أخذت مجرى الإنتقام فأتت بها كفأر تجارب إلى سما كي تتخلص منها.

أما (شفيق) فقد بعث في قلبه هاجسًا من هواجس الشك فهو من أحضر (سما) وهو أيضًا من أحضر الطبيبة النفسية وكلتاهما لا تفيدان أمي بشيء بل على العكس تمامًا فحالة أمي تزداد سوءًا إلى حدود قصوى يجب أن تقطن المشفي جرّاء أفعالها منذ مدة طويلة ..

الكل يقف ضِدّي وهو عالقٌ وسط أفكاره مثلي تمامًا. تجرعنا ثلاثة أكواب من القهوة أثناء جلستنا وختمناهم بخطة ستأخذ من الوقت

ما يكفي لكى أُظْهِر خيوط العنكبوت الخفية و أستأصلها من جذورها حتى أصِلَ إلى ناسجها ومخططها ومدبر مكائدها التي لا تنتهي ..

استعانتي الأولى والأخيرة كانت بفريدة المرأة ذات الطابع الخاص.. تمركزت كل تلك السنون داخل قبو يحمل من الجفاء ما قد تحمله أرضٌ جرداء لكنها كالشجرة الثابته قاومت حتى تصل إلى مُرادها ولكن بعد فوات الأوان !! ..

لم أترك للشك مجالًا لأن يوسوس لي بأنها تنتقم مني بسبب ما حدث في الماضي، لم أكن أنا السبب على أى حال وهى تعلم ذلك بل أنا من صارع الدنيا لينالها ولكن الدنيا كسبت في الجولة الأخيرة رُغمًا عني.

عند حديثي معها أظهَرَت جانبًا من جوانبها الرحيمة ورأفت بحالي وقررت الوقوف بجانبي مُبَرِّرَةً مساعدتها لأمي بأنها أخذت ما يكفي من العذاب طيلة العشر سنون الماضية بعد غيابي أنا وأبي عنها دفعة واحدة .. ثم تدهورت حالتها بسبب ابتعادها عن صديقاتها نهايةً بصديقتها المقربة هالة (سبب المصائب التي تأتي تباعًا نتيجة موتها مصابة بالمرض الذي وسوس في رأس أمي وترك جرثومة تسمى (هيليوفوبيا) تأكل كل ما تقابله داخلها) ..

كلَّفْتُ فريدة بمراقبة (سما) و الإطلاع على الأوراق التي تحفظها أمي بغرفتها فقد تساعدنا يوميات أمي التي تدونها كلما راق بالها وصفا ذهنها (فهي شغوفة بالقراءة خاصةً السير الذاتية). وأردت منها

أيضا أن تذهب إلى (ياسين) كي يُعْلِمَهَا كيف تُخَلِّصُ أمي من مرضها النفسي. فهى تحمل شهادة التمريض في المقام الأول ولن يستعصي عليها الأمر..

أما صوفي وشفيق فكان عليَّ كشفهما والانتقام منهما دفعةً واحدة.

***

obeikan.com

(6)

جبل من الثلج يكسوها، برودة آتية خصيصًا من أقصى الجنوب إليها، هدوء غير عادي يرفرف حولها ونظرات ثابتة تعلن عن الفوز أخيرًا في المنافسة الكبرى بين البطل و الرِّعْدِيد. هذا ما تحاول أن تُظْهِرَهُ فقط عندما أمُرُّ بجانبها، تقسو عليَّ حين تعاندني الصدفة لتضعها أمامي، تتحرك بكل كبرياء وشموخ مصطنع، تعلم في صميمها بأنني سآتي إليها راجيًا متوسلًا فلم يعد غيرها يقاتل في الساحة بعد الآن. أصبحت أنا وهى .. والانتقام ثالثنا، لكنني موقن بأنها ترتجف بداخلها من شدة الخوف. هى السبب الأول والأخير في وفاة شمس، هى من أتى بها إلى (سما). كثيرًا ما لاحظت أمي تحاول تهدئتها والعكس يحدث فأمي تنهار فجأة وتَشْدُدّ أزرها بصوفي. و كثيرًا ما وجدتها تُسْقِطُ الأشياء خيفةً من الأصوات المفاجئة لها، شَكَّتْ رفيقاتها بها لكنها ظلت متماسكة أمامي تحاول السيطرة على ضميرها المعاتب و إخماد رجفة قلبها البالي ..

تَمَشَّت أمامي رافِعَةً حاجبها ناظرة إلى أعلى تنظر إليَّ نظرة احتقار ثم تورايها متجهة إلى الأمام تفضحها المرايا بعدما تتظاهر باللامبالاة ..

حاولتُ استحضار قواعد اليوجا لأهدأ في مثل هذا الوقت واتجهت إليها ممسكًا بمعصمها جاذبًا جسدها إلى وطعنت نفسي بخنجر مسموم وأنا أهمس في أذنها ..

- وحشتيني

تمنَّعَت وحاوَلَتِ الإفلات من قبضتي فشددتُ عليها بإحكام حتى لا أترك لها سبيلًا للذهاب فنظرت باستنكار وهمست هي الأخرى ..

- هه .. ما تحاولش

- بقيتي وحشة

- أوي

- إتمردتي

- لكل فعل رد فعل

- أنا ضايقتك في حاجة؟

- أبدًا

- طب مالك

-زهقت

همت بالرحيل وأفلتت معصمها فدفعتها إلى الحائط وحبستها بين يداي وأصررت على غرز الخنجر بإحكام بجسدي حتى تخرج الكلمات متأوهة بنبرة خافتة تُشْعِرُهَا بالنصر ولو للحظات

- انتي ناسية انك بتشتغلي عندي؟

obeikan.com

- مين قالك إني نسيت أنا فاكرة كويس جدًا

- بطَّلِي مراوغة قولتلك وحشتيني

- بكرة الساعة 10 الصبح هجيلك

- توء .. النهاردة بالليل .. بره القصر

- بره القصر!

- هستناكي بالعربية عند المدخل ما تتأخريش

في المساء ارتديت ملابسًا (كلاسيكية) تُشْعِرُهَا ولو للحظات برغبتي في إقامة سهرة رومانسية حالمة تجعلها تتوق إلى الوصول إلى ذروة مرادها و تتعجل في الحضور. أقاوم رغبة مُلِحَّةً في وأدها حية بعد أن أُبْرِحُهَا ضربًا كما آذت شمس من قبل، لكنني حملت نفسي على الصبر كي أراها تتأوه باكية متوسلة من أجل أن أعفو عنها وبالطبع لن أفعل.

هيأت السيارة لاستقبال فتاة الليل التي ستذهب بقدميها إلى عرين الأسد الذى لا يخرج منه أحدٌ حيًا على الإطلاق ..

أتت متخفية تنظر وراءها خيفة أن يراها أحد ويشي بها إلى أمي. رَكِبَت السيارة و طَلَبَت الإسراع بالذهاب. تحاول بملابسها و عطرها أن تغريني لكنها لم تعلم أنها في نظري أحقر نساء الأرض أجمعين ..

في الطريق بدأت في التحدث بالإيطالية عن أَرَقِي مما حدث لأمي محاولًا استمالة قلبها وبث الطمأنينة بها كي لا تحتسب لحظة غدر مني، فقد يصيبها شك بمعرفتي ما حدث لشمس. حاولت أيضًا أن أجعلها تشعر بأنني لا أحمل ضغينة تذكر تجاهها وأخبرتها بأن حال أمي هو سبب بعدي عنها تلك الفترة. تظاهرت بأنها لا تعلم أنني أكذب و طمأنتني عن حال أمي، وقالت إن سما تقوم بمعالجتها على أكمل وجه وبأنه لا يوجد داعي للقلق عليها، ولننسى وجود تلك العقبات البشعة التي تؤرق الليل و تزيد من غمامته ..

حتى سألتها السؤال الذي بإجابته جعلتني أود أن أطعن قلبها الصلب بسهامٍ مُلتهبة من الجحيم في تلك اللحظة

- حبيتي قبل كده يا صوفي ؟

- ياااه كتيير

- فعلًا؟

- كلهم أندال .. زمان هربت مع واحد من البيت وعشِّمْنِي إنه هيحميني من مشاكل أهلي اللي ما بتخلصش .. كنا متفقين ندفع إيجار الشقة بالنص كنا في إيطاليا .. و في الشهر ده مكانش معايا فلوس تخيل إنه طردني ! البيه كان مُرَتِّبُه كله تمن إيجار الشقة كان بيستغلني

- آه .. وعملتي ايه

- ولا حاجة سيبتهالُه ..

- ببساطة كده؟

- لأ طبعًا .. تاني يوم ولعتله فيها

- حرقتي الشقة !

- آه

- يا جبروتك

- مش جبروت .. بس زي مابتقولوا كما تدين تدان

- بس ساعات الحب بيخلينا نسامح أو حتى نعرف إيه أسباب اللي قدامنا قبل ما ننتقم

- الحب ضعف .. وأنا ما أحبش أكون ضعيفة .. وما أحبش أكون رقم اتنين ولا مركونة على الرف ومهما كانت غلاوة اللي قدامي في قلبي ودرجة حبي ليه أنا الأول .. وبعدين أى حد

- مابتحبيش حد ييجي عليكي يعني حتى لو مثلًا حس إنه مش مبسوط معاكي؟

- مافيش حد ما بيتبسطش معايا بس في ناس طماعة ما بيملاش عينهم غير التراب

- امممم .. طيب

obeikan.com

- وانت

- انا ايه

- عمرك حبيت بجد؟

- حبيت

- وحصل ايه؟

- ماتت

- مراتك؟

نظرت إليها طويلًا ثم قررت المماطلة حتى أسحب منها الكلمات تباعًا

- آه مراتي

- الدنيا مابتقفش واحدة راحت ييجي ألف غيرها ولا إيه؟

- على رأيك بس ساعات اللي بيروح ما ينفعش يتعوض الشبه موجود .. لكن الروح مستحيل تلاقيها تاني

- روح ايه؟

- عمرك حسيتي بأن اللي قدامك بيحاول بأقصى ما عنده بس علشان يرضيكي ..!

- ما فيش حد كده

obeikan.com

- المشكلة اننا ما بنحسش بكده إلا بعد ما بيروحوا مننا. تعالي ننزل هنا

- ايه المكان ده !؟ ده ضلمه جدًا !

- تعالي بس

- أنا خايفة

- ما تخافيش ده بيت واحد صاحبي بس هما مضلمين الدنيا وبعدين يعني القصر على طول كحل هتخافي هنا! تعالي .. هاتي إيدك

ألبستها سوارًا لم تره في العتمة وفرحت لهديتي المتواضعة ..

- انا مش شايفاه ..

- هيعجبك

- أكيد هيعجبني

أنرت كشافًا صغيرًا ينير مكان قدماي حتى جذبتها بقوة و شبكت سوارها بمقبض حديدي وتركتها تصرخ حتى أضأت كشافًا أكبر..

- زين زين إيه ده ! .. زيبين

- مكملناش كلامنا كنت بقولك ما بنحسش إلا بعد ما بيروحوا مننا صح !

ووجهت الكشاف على الباب الحديدي الذي يحمل قطعة مستطيلة من الرخام نُحت عليها (الفقيدة إلى رحمة الله تعالى : شمس محمد سلمان)

1982 - 2002

صرخت عاليًا أصابها الهلع فلقد قَيَّدتها بقبر شمس حتى تتذوق أسمى معاني الرُعب وإن صح التعبير أبشع مخاوف الإنسان، الرُقيّ في الشيء أن تأتي بأصله وأصل الرعب (القبور) .. فلتنعمي يا صغيرتي بقليل من أفعالك الشنعاء ..

- زين أبوس إيدك مشيني من هنا أنا ماقتلتهاش صدقني دي سما. سما اللي قالتلي أقتلها علشان ما أكشفهمش صدقني

- ما تكشفيهمش! مش انتي اتفقتي معاهم عليا وخططتي كويس أوي علشان تقدري تاخديها فار تجارب .. عاوزين تموتوا أمي و مراتي بسهولة كده؟

- والله ما أعرف إنها مراتك .. انا لاقيتها في الكوخ اللي جنب القصر وخفت تكون حرامية

- كدابة .. شمس كانت باين عليها أوي انها مش حراميه .. لبسها حتى ما يدلش على كده .. ده غير إنك ما كنتيش اتغيرتي عليا طول الفترة اللي عرفتها فيها وكدبك عليا وانتي تعرفي البلاوي دي كلها وما قولتيليش

- زين أبوس ايدك سامحني أنا كنت غيرانة منها .. خدتك مني وانت بعدت عني بسببها ما كنتش عايزة حد يشاركني فيك

- انتي فاكرة نفسك ايه .. انتي أخرك خدامة لا راحت ولا جت .. قضّيت معاكي يومين ورميتك في الشارع .. بس في حالتك دي مش أي شارع!

- ابوس ايدك ما تسيبنيش هنا .. انا مش هشيل ذنبها لوحدي

تركتها تنبح كالكلاب التى أصابها الصرع لتوها .. أخذت كشاف النور والسوار. أغلقت بوابة المقابر وتركتها تتصارع مع الأموات والأرواح وما شابه ..

لذة الإنتقام لا يوجد لها مثيل على الإطلاق ..

في صباح اليوم التالي ملأت الجرائد بالخبر الذي كلفني أموالًا لم أحملها بيدي يومًا .. وهو عبارة عن صورة لصوفي و تحتها (مفقودة منذ ثلاث سنوات) من يراها يرجى الإتصال على رقم والديها ..

كلفت فريدة بتفريغ حجرتها من كل ما تملك .. حتى انطَلَت على أمي فكرة هروبها بعد قراءة الخبر المُشِين لسمعتها و كَذِبَهَا على ربة عملها ..

لم تمت في الصباح بل أصابتها صدمة عصبية حادة .. أدت إلى نقلها إلى مستشفي العباسية .. بالطبع الفضل الأول والأخير في هذه

الجريمة يعود إلى صاحب الأفكار النفسية والعصبية دكتور/ محمد ياسين ...

***

تُمْطِرُ الدنيا ألمًا حينما ترى أقرب الناس إلى قلبك يتساقط أرضًا عبدًا للمرض مستسلمًا لما فعلته به الحياة، وعندما تفيق من آلام الحزن القاتلة على ما حدث له تبدأ نفسك بإلقاء اللوم عليك و سجنك وراء قضبان الزمن لتتجرع كأسًا مع الضمير في سهرة نفسية تلعب على أوتار الجسد و تُقَلِّص أوعيته، تختفي ولا يبقى سوى ذكراك السيئة التي كتبها الضمير لك لتعيش بها وترتوي من سقمها ثم تزفر ألمًا يعود سقمًا ولا تنتهى المعاناة أبدًا..

كنت أرى أنه من الجيد والمفيد لعقولنا ألا نشغلها بما يحدث للناس من حولنا حتى ولو كانوا من أعزهم لدينا وإذا تدهورت الحالة فهي من فِعْل القَدَر وليس لنا يد فيها. أن تجلس وحدك تحاول لملمة ما تبعثر من الحياة وإعادة بنائها وينهمك جسدك و عقلك في البحث عن حلول لتعيد حياكة القطع من جديد حتى تجد أنها جميعًا غير مناسبة لهذا الثوب الثمين بعد المعاناة والألم لا يبقى سوى الندم ..

كنت أجلس في غرفتي وحيدًا بعدما ارتاح قلبي من غُصَّتَهُ ولو قليلًا وأخذ بالثأر لمحبوبته، عادت الأحداث المُفْزِعَة في الظهور من جديد والإعلان عن أخواتها و أبناء عمومتها القادمين من أقصى بلاد الأرض ليستقروا على عاتقي ..

كان الطقس باردًا والهواء يصطدم بنوافذ الغرفة مرتديًا ستائرها معلنًا عن قدوم شبحٍ ما ..

نَفَذَتْ سجائري وأقرب مكان أبتاع منه أخرى يبعد عن القصر بمقدار ساعة بالسيارة، استسلمت إلى النوم .. وغرقت في أحلامه حتى فُتِح باب الغرفة معلنًا عن ظهور إحدى المشكلات الجديدة التي لا تحتمل إلا الحلول القاسية ..

كانت أمي مرتدية قميصًا أسود يلمع في الظلام، طويل إلى قدميها، واسع لدرجة أنك تستطيع الاختباء بداخله، يُغَطّي جسدها بالكامل. شعرها الأسود الثقيل كان كالقناع يُغَلِّف رأسها ولم يترك سوى مسافة صغيرة تتلخص في أنفها ونصف شفتيها حتى توارت عيناها خلفه. اقتربت واضعة يدها التي تجمدت فجأة عليّ، باردة كالثلج تُمَرِّرُهَا على جسدي الذي ينبض حرارة بفعل الغطاء، كنت أشعر بها وبوجودها لكنني لم أفتح عيناي هاربًا من حديثٍ سيؤرقني للغد لكنها ظلت هكذا خمس دقائق كاملة لم تتحرك فقط تمسح بكفها البارد على جسدي حتى اتجهت إلى وجهي و هبطت بها إلى عنقي ثم تيبَّسَت لم تتحرك. هل هذه هي وِجهَتُهَا أخيرًا ؟

قامت بجسدها كاملًا رويدًا وهى تتحس عنقي شعرت كأنها ستطبع قبلة أمومة على جبيني وسينتهى الأمر لكنها بعد تلك القُبْلَةَ غير المُخَطَّطَة اتجهت مُسْرِعَةً إلى عُنُقِي و غَرَسَت أسنانها في عروقي حتى انتفضتُ فَزِعًا فأسقطتُها أرضًا، لم تقو على مجاراتي فهي هزيلة

جدًا، نهرتُها بقوة وأمسكت بذراعيها لتفيق من نومها..كانت نائمة! لم تكن في وعيها، تمشي وهي نائمة. سرنمة أيضًا يا أمي؟ هذا أخر شيء كنت أتوقع حدوثه. استيقَظَت مُتفاجِئَةً بوجودها في غرفتي، أزاحت شعرها إلى الوراء ولم تستوعب ما ألفِظُهُ دون وعي إلا عندما وَجَدَت آثار خربشات أظافرها على عنقي فانهارت بكاءً. لم أستطع مناقشتها في حديثٍ سيرهقنا سويًا بعد ذلك. أسندتها إلى الحائط وجلست بجانبها.. أخذت رأسها إلى صدري وهي تبكي بحرقة وتتأسف في ندمٍ شديد وأنا جاحظ العينين ناظرًا إلى سقف الغرفة. لم أجد كلامًا يصف حالتي فالتزمت الصمت علّه يُنْجِي كلينا من هذا الكابوس.

أخذتها إلى سريرى بعد أن نامت بسبب عناء البكاء. جلست بجانبها و عقلي يتمزق ألاف القطع و قلبي قد عُصِرَ بقوة منع النبض من الهروب وبقيت هكذا حتى الظهر عندما أفاقت ..

- زين

- نعم

- وديني لدكتور أنا مش هقدر أخسرك إنت بالذات

نظرت إليها في عجب .. لم أنتظر منها هذا الحل إطلاقًا

-دكتور!

- آه

- نروح لدكتور ياريت إجهزي حالًا ونروح لأحسن دكتور

- بس ..

- بس ايه

- ماتسبنيش يا زين أرجوك

كانت تبكي متوسلة أخذتها داخل ضلوعي وأحكمت غلق ذراعي عليها ودمعت عيناي لضعفها ..

- ماقدرش أسيبك يا أمي. أنا جيت الأول علشان نفسي. دلوقتي أنا هنا علشانك ومش هاسيبك لحد ماتبقي كويسة تعالي نروح دلوقتي للدكتور

- مش هقدر أخرج في الشمس علشان خاطري خليها بالليل .. أو خليه ييجي أحسن أرجوك

- ما تخرجيش من أوضتي إفضلي هنا وأنا هخلي ممرضة تفضل معاكي وصاحبي دكتور هيفضل متابعِك ..

- طب وسما هتيجي تسأل عني أنا مش عايزة أشوفها

- أنا هتصرف

- أرميها بره هى اللي أقنعتني بكده. هى اللي قالتلي إنها هتحولني لفامبير علشان عِرفِتْ حالتي بعد ما أقنعني شفيق بالفكرة

- بتقولي ايه؟! شفيق اللي أقنعك؟!

- أنا كنت بطلب من شفيق كتير أفلام بعد ما عرض عليا مرة واحنا بنتكلم إنى أشوفهم بما إنهم بيخافوا من الشمس واهى حاجة تبع هوايا وتنسيني شوية وحدتي، وبعد كده بفترة كبيرة بعد ما كان يفضل يناقشني فيهم ويتكلم ويمجِّد ويعظِّم حالتهم قال لي إنه يعرف واحدة ممكن تحولني زيهم وبكده أبعِد عن الشمس طول عمري مادام بحب الضلمة وبحب أفلامهم، كبرت الفكرة في مخي .. وقولتله يجيها بقالها سنة بتعمل أبحاث جابت خفافيش كتير دفعتلها ملايين في شغلها لحد ما..

- لحد ما موتُّوا شمس

- إنت كنت عارف!

- سيبي الموضوع ده عليا أنا هخلي شفيق وسما يدفعوا التمن غالي أوي

- سامحني يا زين أنا كنت لوحدي كنت ضعيفة .. أي حاجة كانت سهل تكسرني .. وأديني إتكسرت .. سامحني أرجوك ..

كيف لا أُسامِحُكِ يا أمي وأنا سبب شقائك في هذه الدنيا، يتلاعب بكِ من حولك وفَلْذَةُ كَبِدِك يتجول ثَمِلًا سِكّيرًا في أزِقَّةِ بلدة بعيدة عنك.

شفيق صاحب الفضل الأول والأخير في بقاء هذه العائلة و فنائها ..

نستطيع الإنحناء والإنكسار و التظاهر بالألم لحظات العذاب لنخفف عنا عبء الأذى المستقر داخل ثنايا العنف ..

أيضًا ،، نستطيع البوح بالأسرار وكشف الأوراق المندسة أو طمس الأدلة أملًا في ظهور مُنْجِد ما ينتشلنا من الهلاك. وحتمًا هناك من يصمدون .. يقفون بثبات منتظرين الحكم النهائي أيًا كانت عواقبه حتى وإن سقطت على نحورهم إبتلائات لم يقترفوا ذنوبها، فهم يتقبلون يشدّون أزرهم و يصمدون، يمسحوا بأكُفِّهُم على جِبَاهَهُم طاردين دموع الجسد غير القادر على التمسك بمبادئ الفروسية والشجاعة ، الذي ترك العين بِتَزَمُّتَهَا الشديد وواصل هو البكاء الذي لم يستمع إلى أناته سوى باطن الكف الحزين ..

الويل على من جعل أيامنا مُخزية إلى هذا الحد. الشعور بالضياع أساس النبض الساري بداخلنا إذا علم وجهته سيفشل حتمًا في إبقائنا أحياء، نحن داخل متاهة حقيقية من صنع ايدينا. نهيمُ حول أنفسنا داخلنا نُحَدِّدُ مداخلنا ومخارجنا ولا نتذكر الطرق المؤدية إلى أبوابها ..

مَن مِنَّا بدأ وانتهى عند اعتقاده!؟ ..

كلنا نبدأ وتوصلنا الصدفة أو الحظ الجيد وبالطبع يلعب الحظ السيء الدور الأكبر في مَلء القبور بالمُحْبَطِين اليائسين من الحياة. النهاية .. حتمية لا مفر منها ككابوس مفزع يأتي ليلًا يفرد جناحيه، يظللك، يحوط عالمك، يشعرك لوهلة أنك في أيد أمينة وما تلبث أن

تُسلب منك الحياة، تتوه، وتتفتت من الداخل، تصرخ بدون صوت، تتألم بدون وجع، تبكي بدون دموع، تنتحب ولا يُؤمِّنُ على عويلك أحد. فتتيبس أطرافك تُلقِي نظرة مُرْبِكَةً على شيطانك الحاضر أمامك، تدرس تفاصيل وجهه بِجِدِّيةً كأنما ستمتحن فيه عند الاستيقاظ وتبدأ في تمتمة الصلوات من الداخل لتحرقه. لكنك لا تُبيدُه. يظل الشيطان شيطانًا فأنت لست بملاك. لم تقف ضده لتوقِف أذاه بل اختبأت خلف الإله وصلواتك ليحميك منه ويواريك عنه ويذهب خائبًا على أمل أن يعود من جديد يحمل كابوسًا آخر أشد إيلامًا، أكثر عنفًا، أبشع وجهًا ولن تفيق يومًا لتحتسب كونها نهاية ..

(كل الطرق تؤدي إلى روما) ياليتها روما ياليتها ..

كلها هواجس أكتبها. أُمَرِّر على الورق قلمًا يُقَبِّلُ السطور في نعومة وسلاسة كأنه يفتقد الورق، يرسم حروفًا ببراعة تُتَرْجَم في كلمات مؤلِمَة مُزَخْرَفَة بخط واهن لأيدٍ مُرتَعِشَة، يمتلكها جسد بالي وعقل اعتُصِرَ من كثرة التدبير وتَمَزَّقَ من هولِ التخطيط. يُرْسِلُ إشاراتٍ في العتمة – نور – وفي النور لا يرى سوى –الظلام.

أرسم خيالات .. ظلال .. أشباه أجسام .. وأُطْلِقُهَا لتتجسد من حولي وأنظر إليها في متعة. أخلق لنفسي المتاع حتى لا يفرض أحدًا عليَّ بضاعته ويقوم بابتزازي بها، أثناء الحرب أشُمُّ رائحة الذُرَةَ المشوية وأستطعَمُ مذاقها، أخلطها بلفحة هواء باردة ورائحة ليلية نيلية

عَبِقَة فأنتعِشُ وأعودُ للقتال أقوى مما كنت بأقل الوسائل، بخيالي وفقط و حتمًا أنا لا - أتذمر- بماذا سيفيد التذمر .. لماذا أحاول خوض معركة نتائجها معروفة للطرفين .. لن أهدأ إذا زادت ثورة أمي، لم يعد هناك مكانٌ في الأرض يشفي قلبًا سقيمًا تَعَذَّبَ من كثرة الاستسلام لن يقبله وطن ليحميه و لن تُدَثِّرُهُ الأيام و تشفيه ، تبدأ الحرب بإشارة من الطرف الأكثر عداءً .. الأكثر ظلمًا .. والأكثر جنونًا. استسلمت للثورة الكامنة في جوارحي كي أُطْلِقَ العنان للفرس الذي هُدِمَت حصونه داخلي، لن أُقَيِّدَ شموع التعازي الآن، أريد هدنة داخلية معي حتى أتقبل مشاحنات العالم الخارجي الرجيم.

استوقفني تفكيري عن الكوارث القاطنة في جعبتي ، حادث صغير أيقظ شجيرات عقلي و بث فيها شرارة كهربية أنعَشَت رأسي ليفكر بهدوء دون إرباك. نظَّمت الأحداث وحللتها حتى وصلت إلى طرف العقد الملفوف حول رقبتي، لم يعد ينقصني سوى شد ذلك الطرف ليَخِرَّ الباقي ذليلًا عند موضع قدماي. لقد قمت بالبحث في غرفة أمي سابقًا لكنني تجاهلت معمل سما المُتَّخِذَ من قصري ملجًا، لابد أنه سيوصلني إلى دليل أو شيء يخفف عني جنون التفكير.أحتاج إلى تنظيم لأوراقي و ترتيب لتحركاتي قبل البدء بتنفيذ خطط جديدة، أريد أن أحظى بصفاء الذهن ولو قليلًا. هذا القصر يُشْعِرُني بالوحشة القاتلة والوحدة المُرهِقَة. قرابة شهر وأنا أحتمي بجدران صامتة لم تُجْبِرَنِي على المكوث ولم أستطع الهرب، حتى الكوخ والكازينو، كل تلك الأماكن تحمل معالم أَرَقِي الحالي. أخذتني قدماي إلى فريدة .. طلبت منها أن أهرب إلى بيتها حتى أنعم بقليل من الهدوء

والاستجمام بعيدًا عن كل هذه الحرب الصامتة التي تحوطني، رَحَّبَت كثيرًا و أنهت ورديتها النهارية وأخذتني في سيارتها بعيدًا عن هذا السجن الذي يحبس قاطنيه إلا قلة قليلة حظت بميزة الحرية والحياة وإن كانت مصطنعة، وأخيرًا شعرت بالهواء وهو يلفح وجهي المشتعل بعد أن كان ممنوعًا من الدخول حتى لا يُلَوِّث جو القصر المشحون كتمةً و داءً ..

- لسه عايشة مع باباكي ؟!

- لأ .. بابا اللي عايش معايا دلوقتي

- يعني ايه مش فاهم!

- هتعرف

- مش ممكن يدبحني لو شافني

- ماتقلقش .. بابا الزهايمر أكل دماغه .. مابيفتكرنيش أنا

نظرت إليها شاردًا أعبث بكم الذكريات التي هتكت حرمة عقلي المغلف بالشجن و أصرت على تلقيني درسًا مؤلمًا عن الحسرة على أيام كنا نحسبها من أسوأ أيامنا على الإطلاق ، وهي لا شيء يذكر بجانب الأهوال الحالية ...

- ياه عالزمن. الراجل المثقف ده ياكله مرض النسيان!
- في واحدة دايمًا معاه بتراعيه وقت ما باكونش موجودة

- ليه مابتشتغليش في مستشفى أحسن ليكي؟

- مدام منير بتديني مرتب هايل مستحيل هاخده في أي مكان تاني، وصلنا

- ساكنه هنا؟

- اه

صعقت حقًا .. وقفت سيارتها أمام إحدى فلل المعادي القديمة، منزل واسع المساحات يزينه حديقة صغيرة تعج بلعب الأطفال والمراجيح البلاستيكية الصغيرة لم تكن تسكن في مكان كهذا .. أذكر حارتها التى ترعرعت فيها، الفقر الذي حال بيني وبينها منذ زمن ! ماذا فَعَلَت كي تأتي بكل هذا المال؟ تنبَّهت لصوتها الذي تخلل أفكاري كعادتها ..

- ماتستغربش ده بيتي .. اللي اتجوزت فيه

- انتى متجوزة؟!

- أرملة

فَتَحَتْ باب المنزل على صوت ملائكي صغير قادم من غرفة مجاورة للباب مهرولًا .. فَرِحًا بقدومها ..

- ماما ماما .. وحشتيني

- حبيب قلب ماما

طبعت عدة قبلات حنونة على وجه ذلك الصغير وهى تضمه بقوة حتى انتبه لوجودي فتقطب جبينه كأنه شاب بالغ يغار على أمه من الغرباء ..

- مين ده؟!

- ده يا سيدى أونكل زين .. قريبنا

تركها و أقبل على شادًا قميصي لأجثُو على ركبتاى وأكون في مستوى نظره .. فانحنيت باسمًا له ..

- اسمك على اسمي

- انت كمان اسمك زين؟

- شفت بقى؟ بس انا مش حلو زيك كده

- عارف عارف .. المهم فين الحاجه الحلوة بتاعتي؟

ضحكت لبراءته، و تقطب جبين فريدة صائحة فيه بحزم:

- ولد! زين عيب كده

أردف بنفس لهجة الجد التي تخللت وجهه الصغير وهو ينفعل بحركات يديه الصغيرتين ..

- عيب ليه؟ .. هو مش عارف إن إنا صغير وكل الصغيرين بيحبوا الحاجة الحلوة؟ .. إنت يا أونكل مش لما كنت صغير كنت بتحبها؟

- بس يا ولد

أسرني ذكاؤه الحاد، أضحكني من قلبي حقًا ..

- سيبيه يا فريدة انا غلطان فعلًا .. أوعدك إني هجيبلك حاجات حلوة كتير ما تلحقش تخلصها في سنة بحالها

صاح مهللًا وهو يركض إلى الداخل مختصرًا أرض المنزل في قفزات شيطانية مرحة ..

- معلش ..هو شقي حبيتين

- ده زي السكر .. ربنا يخليهولك

ابتسمت وهى تنظر إليه في حنان ثم عرضت علي مشروبًا ساخنًا وذهبت لكي تحضره .. جلست منتظرًا قدومها.. حتى أتى والدها. شعرٌ أبيض كثيفٌ يخترقه خصلات سوداء يصل ببشرةٍ بيضاء تتخللها حمرةٌ خفيفة، و جسدٌ متماسك ليس بشديد النحافة، يرتدى بنطال بدلة بنية وروبًا فخمًا يميل إلى اللون الذهبي يغطي قميصًا سمنيًا حريريًا، لا يبدو عليه أنه كان يعمل سائقًا في أحد الأيام، كان يمسك بيده كتابًا لدكتور مصطفي محمود. لا يزال مُثَقَّفًا حتى بعد أن

سكنه المرض، اقترب مني متسائلًا -لولا حدثتنى فريدة عن مرضه .. لكنت حاليًا أتلقى سبابًا لا ينتهى -..

- انت مين؟!

- أنا .. أنا جاركو

- اه .. و مين اللي فتحلك الباب ؟!

قاطعتنا فريدة ..

- أنا يا بابا .. انت إيه قومك من سريرك؟

نظر إليها مستنكرًا ..

- بابا مين .. انتي مين !

خالجتها حمرة خفيفة بوجنتيها وهى تحاول منع كارثة كونية من الحدوث أمام غريب لا يعلم عن المرض شيئًا ..

- آسفه .. أقصد أنا الممرضه بتاعتك .. الدكتور قال لازم تفضل في السرير .. وانا هعملك كل حاجه

- انتي حرامية سرقتي فلوسي اللى كانت جنبي الصبح منير بيه لو عرف هيطردني، كان سايبهالي علشان أفسح بيها زين!

اللعنة على المرض. نفت كونها ابنته لمجرد نسيانه حتى لا تجرحه وهو يتهمها بسرقته معتقدًا أنه لا يزال يعمل لدى أبي !!

- الفلوس موجودة .. حضرتك روح شوفها هتلاقيها زي ما هي

- هروح ولو مالقيتهاش هتصل بالبوليس ييجي يرميكو بره

تركنا وهو يتمتم بالسباب جلست فريدة معتذرة عما حدث لكنني أخبرتها بتفهمي الوضع ..

- معلش يا زين .. انت عارف المرض و بلاويه هو أصلًا بمجرد ما يروح هينسى كان رايح لإيه

- ولا يهمك .. انا بس مستغرب ماقصدش بس انتى عايشه عيشة كويسه في مكان كويس .. ايه يخليكي تتقيدي بالشغل في القصر؟

- الأول كنت بشتغل علشان أوصل ليك أعرف أي حاجه عنك كنت حاسّة بوحدة ودماغي مش بتفكر غير فيك لحد ما مات سمير ما كانش سايب ولا مليم في البنك ضَيَّع كل فلوسه على السهر والقمار .. أنا ما رضيتش أبيع البيت علشان إبني ما يعيشش في مستوى قُلَيِّل عشان كده بشتغل

- جوزك كان بيشتغل ايه ؟

- كان فاتح شركة سياحة صغيرة وفي آخر أيامه باعها علشان يسدد ديونه, الحسنة الوحيدة اللي عملها إنه مات من غير ما يسيبلي ديون أتمرمغ فيها

- ابنك زي القمر .. شهك

أعطتني المشروب الساخن وهي تنظر إليه في حنان مبتسمة تشكر القدر الذي أهداها سببًا للبقاء حتى الآن ..

- لَمَّا سميته زين بابا كان معترض بس لما شافه ولقى ملامحه حلوة كده وافق مش عشان ابني والكلام ده بس هو فعلًا زي القمر

- طبعًا! مش محتاجة تبرري أنا شايف بعيني هيطلع لمين يعني؟!

- بطل مراوغة. تعالى نشرب الشاي في الجنينة بره أأ .. تحب أحطلك نعناع؟

- عندك ؟!

- ده أساسي .. لسه بتشرب الشاي بالنعناع!؟

نظرت إليها باسمًا وأنا أومئ برأسي مؤكدًا على كلامها ..

- ده أساسي

تتذكر كل تفاصيل الماضي تجعلني أتناسى كينونة الحاضر وأغمر نفسي بعبق الماضي الحنون ..

خرجنا إلى الحديقة، كانت الشمس تُوَدِّعُ الأفق بخيوط برتقالية دافئة، (زين) يلهو مع ممرضة جده الذي استسلم للنوم، أما فريدة فاستأذنت لكي تبدل ملابسها وتقوم بتوضيب الغرفة التي سأختلى بها الفترة القادمة ..

لم أشعر بالدفء هكذا إلا عندما خطوت بيتها، هذا الصبي يملأ المنزل روحًا غير عادية، يدور صائحًا يَقْلِبُ الأثاث رأسًا على عقب ولا يهدأ، تتبعه الممرضة مصححة لما يُخَرِّب غير ناقمة فشقاوته لذيذة حد الجنون .. مَرِح كثير الضحك بشوش الوجه هربت منه سنتاه الأماميتان فأصبحت كلماته مضحكة تخرج بصعوبة تجعله يخجل و يعاندها لتخرج بمخارجها الصحيحة ..

أجبرني على مجاراته، جعل الحياة تضحك في وجهي أخيرًا فلقد نعمت بأحلى ساعات حياتي معه. وعدته بالخروج و زيارة الملاهى وحديقة الحيوانات فأحبني بشدة و طلب مني أن أمكث لديهم للأبد، لا يعلم أنه إذا عاد الزمان إلى الوراء قليلا و سايستني الأيام و تقبلت اندفاعي المراهق لأصبحت اليوم والده الذى يغفو بجانبه ليلًا و يحيا بقربه نهارًا ولا يكره الحياة هكذا ..

في المساء صَعَدَت فريدة إلى غرفتها متممة على ولدها وجدتنى بقربه أستمع إلى حكايته الليلة، فأنا لم أستطع سرد قصة طفولية حالمة له فعرض هو عليَّ إحدى قصصه حتى تظاهرت بالنوم فطبع على جبيني قبلة طفولية واستغرق في سُباتٍ هادئ يتخلله خيوط ذهبية

من أحلامه الطفولية الهانئة. لم أُرِد الذهاب وقررت المبيت بجانبه لكن حضور فريدة جعلني أذهب معها لنكمل سهرتنا حديثًا بدون اتهامات أبيها الجنونية أو ضوضاء ولدها الشيطانية. جلسنا حتى بزوغ الفجر، نتحدث عن ما فَرَمَتْهُ الأيام بأحداثها، نأتى بالماضي ونيسًا لسهرتنا ونلعن أمامه الحاضر ونخطط لما سيحدث للمستقبل، لم أنعم بهذه الراحة والهدوء منذ خطت قدماي سلم الطائرة حتى هذه الليلة ..

- وحشتني القعدة معاكي

- أنا مش مصدقة أنك قاعد معايا

- الدنيا أضيق مما كنا نتخيل

- القدر هو اللي دايمًا بيفاجئنا بس انا مش عارفة انت ليه مكبر الدنيا، انت ممكن تطرد سما وشفيق وتريح بالك .. ولَّا حبيتها؟

- قصدك شمس

- هو في غيرها

- تعرفي يا فريدة أنا عرفت ستات بعدد السمك اللي في البحر ومع ذلك ماحبتش غير تلاتة

- واللي هما مين يا أستاذ كازانوفا

- شمس ونوران ... وانتي

ابتسمت متفاخرة بكوني ذكرت اسمها ضمن قائمة قلب (كاسر قلوب العذارى) كما كانت تناديني في الماضي .. ثم أردفت

- واشمعنا إحنا

تحسست نبرة الهجوم في كلامها ما لم أقل كلامًا لائقًا بما رمت إليه لذا أخذت حذري وأنا أشرح كم هن ملكات متوجات على عرش كل رجل يدعمه القدر و يوقعه أمامهن ..

- مش أي ست تقدر تخلي قلب الراجل يتحرك بسهولة ممكن يعرف ألف واحده ويفضل مع حبيبته وما يسيهاش كل واحدة فيكو كانت بتعرف تخليني ما أشوفش غيرها .. ودي شطارة منكو انتو مش بخاطرنا

هكذا ترضي النساء إذا أشبعت ثقتهن بأنفسهن تغدو من أحظى الرجال على الأرض ..

- ماشي يا فيلسوف زمانك..

شَرَدَت للحظات و تذكرت عملها محاولة إيجاد وسيلة للبقاء مع ضيفها المُرَحَّب به بطبيعة الحال لكن لا يوجد وقت لتلك المماطلات فالأيام آتية لا ريب ولن نمتلك الحاضر إذا أضعناه ..

- أنا لازم أروح بكره القصر ؟!

- إنتي لازم تروحي طبعًا. هتعملي حاجة مهمة جدًا ، هتدخلي المعمل عند سما .. حاولي تشوفي أي حاجة تعرفي حتى هى بتخطط لإيه

- ولو قفشتني

- اتصرفي يا فريدة .. ايه يا ست الممرضة مش هتعرفي تقوليلها بدور على دوا أو حاجة .. أي حجة .. المهم تعملي كده وتيجي بدري

- ليه

- عاوز أخرج معاكي إنتي و زين

- ما تتعبش نفسك هو مسيره ينسى

- لا أنا عاوز أخرجه ..

ثم نظرت إليها باسمًا

- ونفُكّ عن نفسنا شوية

- ممنونة جدًا يا حضرت

- بطلي غَلَبَة .. لسة بتقلدي أفلام الأبيض واسود

- دي أحلى حاجه في الدنيا .. ناس كانت عايشة في رُقيّ .. إحنا عايشين في غابة ..

- طب يلا علشان تصحي بدري

- مش هتنام؟

- لأ أنا هفضل هنا شوية

جلست أتذكر أيامي معها الفتاة الرقيقة صاحبة الوجه الحسن .. بيضاء كصفحات الجليد التى تغطي المحيطات الشمالية، العينان السوداوان اللتان تنعمان ببريق طفولي رقيق، أنفها الواصل إلى شفتيها الورديتين الكبيرتين، النمش الذي يداعب وجنتيها الحمروين، جسدها المتناسق الانحناءات، وشعرها الأسود المختلط بالخصلات القرمزية القاتمة ..

لوحة عبقرية لفنان هائم حدد تفاصيلها بدقة بالغة لتجذب الانتباه إليها دونًا عن غيرها ..

ملابسها رقيقة دائمًا تحمل ورودًا ووريقات أشجار ..

طبعت عليها الأفلام القديمة بذوقها الرفيع فأصبحت لا ترتدي سوى الفساتين القصيرة الناصعة تظهر ساقيها الصغيرتين منتهية بإحدى الكعوب العالية، الخصرالمشدود و تسريحات الشعر الراقية ..

تحفة فنية لم ينل منها الزمان، صورتها لم تتذبذب من جوف ذاكرتي لم أتوقع أبدًا أن تكون تلك المزيفة التي حدثتها أول يوم أتيت فيه إلى القصر، خانتني عيناى وأعمت قلبي عنها..

ياليتنى تعرفت عليها قبل كل هذه المصائب ..

لم أشعر بنفسي إلا وأنا نائمٌ أحلم بها، واستيقظت وهى تناديني فجأةً فزعة .. تنتشلني من أجمل أحلامي على الإطلاق ..

***

(7)

جاء الصباح مُحَمَّلًا بأخبار صاخبة استيقظتُ فَزِعًا على صوت (فريدة) المرتجف وهي تُزيل الستار لكي تكشف ضوء الشمس المؤلم للأعين إذا فاجأها بغتة بعد الظلام الدامس. جلست وهى تنتفض محاولة بشتى الطرق إيقاظي ..

- فوق يا زين في مصيبة ولازم تعرفها

حاولت فتح عيناي لكي أرى ما تحمله من أرق جديد, بالكاد استطعت الإتكاء على ظهر سريري وعندما فُتحت عيناي ألقت في يدي ملف أُولَى أوراقه تحمل كلمات جعلت النوم يهاجر من عشش جفوني للأبد ..

- **خطة بحث**

(تزايدت في الآونة الأخيرة نسبة الوفيات الناتجة عن مرض (السكتة الدماغية) في كثير من بلدان العالم .

ولقد تصدى الأطباء لعلاج هذة الحالات عن طريق استخدام مواد مضادة لتجلط الدم . ولقد ثبت أن لبعض هذة المركبات آثار جانبية ضارة .

ونتيجة لذلك اتجه الباحثون إلى البحث عن عقار بديل يحل محل هذة المواد الضارة ..

من هنا جاء التفكير في الاستفادة من بعض المركبات الحيوية التي تُكَوِّنُهَا الكائنات الحية في أجسادها . حيث أنها مواد طبيعية قد لا ينشأ عنها آثار جانبية ..

وقع الاختيار على (الخفافيش ماصة الدماء) والتى غالبًا ما تعيش في (أمريكا الجنوبية)

حيث يمكن لـ (الخفاش مصاص الدماء العادي) أن يفرز مواد تساعده على إطالة فترة نزيف الضحية و منع تجلط الدم .

تكمن سر هذة العملية في إنزيم مخصص لسيولة الدم في لعاب الخفاش والذي يسمى (ديزموتبليز)

لذلك, يهدف البحث المقترح إلى استخلاص المواد المضادة لتجلط الدم في لعاب الخفافيش الماصة للدماء و استخدامها في إنتاج عقار بديل لتفادي الأخطار الكيماوية التى تسببها الأدوية الأخرى في علاج الحالة المشار إليها .)

لم أستطع تصديق عيناي وهي تقرأ هذا الملف الذي وَجَدَتْهُ فريدة بداخل معمل سما! .. أقسَمَت بأنها لم تجد أوراقًا تدل على أن (سما) تقوم بالبحث لتساعد أمي في التحول المُهِين إلى حيوان كريه ..

أصابني الذهول أكثر عندما تنبهت لصاحب تلك الأبحاث .. فكل الأوراق التي أقرأها تنتهي بتوقيع (هويدا شفيق حسن) !

شفيق حسن ! .. محامي العائلة (الشريف)! هل يأتي بابنته التي أقنعني بسفرها الدائم للخارج بعد موت والدتها والتى لم أقابلها قط ولا أعرف عنها شيئًا كي تقوم بدراستها على أمي في قصرنا ! بعد أن امتدت له يدنا بالكرم و قلوبنا بالرضا و بالنا بالأمان يرد هذا الإحسان بأبشع أنواع الخيانة ! , ربما هى صديقة سما أو لربما هى سما متخفية تحت اسم أخر يمكنها أن تتصرف بمنتهى السهولة ..

هو من أتى بها وهو من أقنع أمي بتلك الفكرة الدنيئة. هو من أحضر إليها شرائط الفيديو المخصصة لتلك الأفلام الحمقاء ..

جَفَّ حلقي و تجمدت أطرافي شُلَّ عقلي تمامًا عن التفكير. أصبحت أهلوس بكلمات غير مفهومة الجريمة التي تُرتكب في بيتي أصبحت جلية المعالم الألغاز أخذت الطريق الصحيح أخيرًا وبدأت في التفكك و التحلل. لكنني أصبحت عبدًا للذهول مكثت في الغرفة حبست نفسي داخلها أحاول ترجمة ما يحدث لي. أعدت صياغة الكلمات التي بالملف. فككت شفرة الخيانة بتحليلي للأحداث التي حدثت منذ وصولي حتى الآن ..

كان الانتقام و التدمير هو الحل الوحيد الذي سينتهي به هذا الصراع ولكن لماذا؟ أريد حقًا معرفة ما هى الأسباب التي دفعت هذا الرجل المُسِنّ بأن يلعب هذه اللعبة القذرة على أسياده ..

كان من السهل علية أخذ المال والهروب و تمويل بحث ابنته وانتهى الأمر. لماذا أصر على إلحاق الأذى بكل من حولي ؟ بدءًا بأمي وانتهاءً بشمس !

ظللت هكذا ساعتين حتى أتت فريدة محاولة تثبيط انفعالي كلانا لا يعرف من أين يبدأ ..

كنت أنتظر منها حلًا فمن سقط بالحفرة ليس كمن يقف خارجها

- روح لشفيق ده بيته واستفسر منه

- لو شوفته هقتله

- هدي أعصابك .. لازم تمسك نفسك علشان نعرف نتصرف

- أنا مابقيتش واثق في حد

- أنا معاك ولا أنا كمان مش واثق فيا؟

- فريدة .. أنا مش قادر

- ركز يا زين وحاول تميز مين معاك ومين ضدك

- المشكلة ان الكل بيتدارى كل الوشوش خاينة .. والخاين أكتر واحد بيقرب

- انت بتجرحنى بكلامك

- إنتي أكبر من إنك تاخدي الكلام عليكي .. إنتي عارفة إنتي إيه بالنسبة ليا

- فوق .. إنت لازم تفوق علشان تعرف تتصرف .. كلنا بنقع في مشاكل .. كلنا الهم طايلنا .. بس لازم نكابر .. لازم نقلل منه علشان نعيش

- يا ريتني ما كنت نزلت من فيينا كنت عايش بمزاجي وفي حالي ماحدش عرف يعكر الحياة كده

- بالعكس .. انت كان لازم تنزل علشان تنقذ حياتك .. بدل ما كنت فضلت على عماك وقضيت عمرك كله بتتحسر على ضياع أمك و فلوسك

- كده كده كانوا ضايعين

- إحنا مابنحسش غير لما بنتوجع يا زين أو بمعنى أصح .. ما بنحسش غير لما بنشوف مكان جرحنا بعينينا بعد ما لَهَّانَا لِعْبِنَا عن وجعه.

أسندت رأسي إلى كتفها لاجئًا أشعر بضياعٍ مُهلِك .. لا أستطيع المقاومة والوقوف ضد التيار ألوذ بها من عالمي فهي مَن تَبَقَّى لديَّ ولا أريد أن أترك للشك فرصة بأن يختلق أوهامًا تتعلق بها وتمنعني عنها ..

ظللت هكذا طوال اليوم بجانبها يُجْبِرُني الصغير (زين) على الضحك للحظات ثم يهرول إلى غرفته يرى في عيني دموعًا لا تجف فيأتي إليها ماسحًا ومتمتمًا بإحدى النكات ويذهب ..

لم أشعر بالدفء الحقيقي إلا بداخل هذا البيت تمنيت حقًا لو عاد بي الزمن وظللت بقربها أرعاها و أرعى ولدها و أمي في آنٍ واحد ..

***

أخذت بنصيحتها واتَّجَهت إلى منزل (شفيق) بعدما راقبته طوال اليوم صباحًا بالمحكمة ثم إلى مكتبه و أنهى يومه بالذهاب إلى القصر آخذًا (سما) أو (هويدا) لا أعلم حقيقة .. لكنه أخذها على أيِّ حال وذهبا ..

وصلت سيارته إلى إحدى العمارات الفخمة في (مصر الجديدة) أشار لحارس العقار وأعطاه مفاتيح سيارته و صعد. انتظرت حتى ذهبوا جميعًا ودخلت مسرعًا إلى المدخل الذي يعج بالمرايا اتجهت إلى المصعد وانتظرت حتى أرى الطابق الذي وصلا إليه أخيرًا. وقف المصعد عند الطابق الحادي عشر ولم يلبث حتى صعد الطابق الذى يليه. كدت أفعلها وأصعد إليهما مرتكبًا جريمة في حقهما إلا أن المصعد بدأ في الهبوط إلى الطابق الحادي عشر وتوقف مليًا ثم بدأ بتلبية ندائي هابطًا أسرعت خارجًا إلى سيارتي مراقبًا لمن بالمصعد علَه قرر الخروج مرة أخرى.

كانت سيدة ترتدي عباءة فخمة نوعًا ما تلف على رأسها طرحة تاركة نصف شعرها المصبوغ بعناية ظاهرًا ممسكة بيد (سما) التى طلبت سيارة أجرة واستقلتاها و ذهبتا ..

وجدتها فرصة أن أصعد إليه وحيدًا بعدما تَأكَّدَت أخيرًا علاقته بـ (سما)

أوقفني حارس العقار متسائلًا ,,

- خير يا بيه طالع لمين ؟

- مش المتر شفيق ساكن هنا بردو؟

- ايوة شفيق بيه هنا لسه طالع .. مراته وبنته لسه ماشيين حالًا عندما صعد المصعد طابقًا إضافيًا و هبط مرة واحدة ورأيت تلك السيدة مع (سما) حسبتها جارةً ما فأمها (زوجة شفيق) قد ماتت منذ خمس سنوات بسرطان الجلد.!

- مراته ازاي .. هى مش ماتت من خمس سنين؟

- لا يا بيه أعوذ بالله الشر بره وبعيد الست هالة عايشة ومنورة الدنيا

- ازاي الكلام ده دي عندها سرطان

- الله أكبر يا بيه .. لا الست سليمة و زي الفل

- يعني هى ولا ماتت ولا عندها سرطان

- يا بيه بقولك لسه ماشية مع بنتها الداكتورة هويدا دلوقتي حالًا اهو

متى ستنتهى تلك المفاجآت البشعة التى تظهر أمامي بين الفينة والأخرى؟ وقفت شاردًا كالعادة لم أستطع التحرك أو حل اللغز الجديد وحيدًا حتى انتهت لنداءاته المتكرره

- يا بيه .. يا بيه هتطلع ولا لأ

- هاه ! .. أنا كنت فاكر شفيق مكتبه هنا

- لا المتر شفيق مكتبه مش هنا .. كان زمان كان هيعمل الشقة اللي في الدور الـ 12 مكتب بس إداها لبنته تعمل أبحاثها فيه بعد ما رجعت من ألمانيا..

- بنته! أبحاث إيه؟ ورجعت إمتى؟

- ماهى الست هويدا دكتورة في كلية العلوم وكانت مسافرة بره تدرس وجت من سنتين. بتجيب حيوانات ياما وتفضل تشرّح فيهم بتقلب ريحة البيت بعيد عنك .. فشفيق بيه إداها الشقة اللي فوق

- بتشرّح إيه

- بيييييي كل اللي يجي على بالك دي حتى بقت تجيب خفافيش. يللا ربنا يساعدها في رسالتها .. أصلها بتعمل الدكتوراه عقبال عندك

- .....

- مش هتطلع يا بيه ؟!

- هه! لأ هبقا أروحله المكتب

- طب تحب أقوله مين؟

- لا ماتقولوش أنا هروحله بكره أصل إحنا قرايب وبقالي خمس سنين ماشفتوش

- تحت أمرك يا سعادة البيه أي خدمة

أذكر جيدًا أن (هالة) صديقة والدتي التي أصابها سرطان الجلد بفعل الشمس هى زوجة (شفيق). شفيق الذى أخبرني بفوبيا والدتي (الهيليوفوبيا) وأهدى أمي كل تلك الأفلام المتعلقة بمصاصي الدماء و أقنعها بفكرة التحول المُهينة حتى يأتي بـ (سما) لتقيم مشروعها العلمي على أمي تستخدمها كفأر للتجارب رغم أنها لم تصب بجلطة واحدة طيلة حياتها .وقتلت (شمس) بسبب تجاربها. ماذا ينقص لكي تكتمل الحلقة؟ إنها جريمة لا يعاقب عليها القانون. فالمظلوم أبله انطوت عليه الخدعة بسهولة.

هاتفت (ياسين) لأعلم ما وصل إليه مع أمي و أسألها مؤكدًا على صحة معلوماتي المستنتجة وأمَّنَت على ما أقول بدورها. ذهبتُ إلى فريدة أستشيطُ غضبًا أكاد أحرق من يقترب مني بلهيبي.

مظلمة هى الدنيا في عيناي الآن لا أرى لا أسمع لا أتكلم. فقط أجلس في أحد أركان بيتها حائرًا أُصارعُ الألم أكاد أتمزق تحليلًا للأمور تم استخدام كل ما أملك ليُكَرَّس خِدْمَةً لرسالة دكتوراة.

- لعبوها صح , ماكنتش متخيلة إنهم بالوقاحة دي

- إحنا اللي مغفلين, كل حاجة باملكها إنهارت قصاد عيني

- مش قادرة أصدق كل ده يطلع من شفيق! ده بيخاف يبص في وش أمك

- مراته ما ماتتش ! إزاي فكروا كده إيه السبب؟!

- حقيقي مش عارفه يا زين دي دماغ أبالسه مش عارفة حتى أفُك شفرتها, ايه سبب الكُرْه اللي يوصَّلهُم يستغلوا مامتك كده! انا عشت معاها. آه هى متنشنة وبحالات بس طيبة جدًا إزاي هانت عليه بعد العِشرة دي!

- مش لاقي كلام أقوله. أنا اللي غلطان. سيبتها تواجه الدنيا وديابتها لوحدها وجريت ورا مزاجي. أنا مسامحها ومش مسامح نفسي.

- لازم تواجههم. لازم تاخد حقك

- هستفاد ايه؟ هينكروا طبعًا ومافيش دليل يثبت. لازم بقا أعمل حاوي علشان أثبِت إنها بتستخدم أمي فار تجارب وبتستغل القصر علشان تعمل مشروع. مين هيقف في صفي, الكل هيقول مغفلين ويستاهلوا.

- ماتسبَّقش بالأمور اصبر وفكر كويس. خطة البحث بتاعت رسالتها معاك أكيد يهمها تكون معاها وهتدوَّر عليها. ولو ضاعت هتخاف

تتكشف. هما مش مافيا علشان يرُدّوا الضربة بضربة أقوى هما أجبن من كده بكتير. ولا ايه؟

- أكيد عاملة ألف نسخة وأنا مش حمل تكهنات مش هتوصل لحاجة, دول خلوا الست يجيلها فوبيا! مش هيلفوني في كفن مرض تاني من أمراضهم

- لازم نتصرف. انت مش مغفل يا زين علشان تسيب حقك

اصطدت فكرة طائرة كانت معلقة بردّي الأخير عليها (ألف نسخه) جعلتني شاردًا للحظات لم انتبه لها حينها فأنا على مشارف حرب أنا من سيبدأها وينهيها منتصرًا.

- ايه يا عم روحت فين؟ بكلمك

- أنا جاتلي فكرة جهنمية هتخليهم يلفوا حوالين نفسهم

- إشجيني

- لا هننفذها حالًا مش هستنى أشجيكي مافيش وقت.

***

(8)

بدأ صباحي التالي بوجه (زين) الصغير كم يشبه أمه الرقيقة أتى يُلْقِي عليَّ تحية الصباح التى تقرر ما إذا كان يومي سيئًا أم لا. أصبح علامة الحظ الجيد لديَّ جُرْعَة تفاؤل أتلقاها عندما أراه تجعلني أزداد إقبالًا على الحياة هكذا هم الصغار لهم لمسات دافئة مهما اشتدت برودة الجو و ابتسامات مبهجة مهما اسودت الأيام.

كلَّمَا فَكَّرَت في خططي التي وضعتها أنا وفريدة والتي نَفَّذْتُ أولى خطواتها أمس، أشعر بالارتياح فالأعمى أمامه بضع خطوات ليمارس عادة الإبصار. والأبله بدأ في الاستيعاب وعلى الأذكياء أخذ الحذر فرد الفعل أقوى من الفعل نفسه (قانون جديد عَلَّمَتْهُ الدنيا لي هذه الأيام) ..

انتظرت حتى جاء موعد عودة شفيق من عمله وذهابه إلى منزله راقبت المبنى عشر دقائق ، ثم تظاهرت أمام البواب بأنني لم أستطع أن أراه في مكتبه لتأخري لذا أتيت تَرَكَنِي أمرّ صعدت و الغيظ يأكلني حاولت تهدئة أعصابي وإراحة عضلات وجهي أخذت شهيقًا قويًا وزفرته ببطء اصطدت بعضًا من الثبات الإنفعالي و ضربت جرس الشقة

- زين !

- إيه يا عم شفيق ساعة عشان تفتح الباب

- أأ .. لا يابني أصلي كنت باا ..

- إيه مالك! انت معاك حد جوا ولا إيه يا عم!

- لا أبدًا يابني هيكون معايا مين يعني

- يا راجل يا عجوز.. طب مش هتقولي اتفضل؟ هفضل واقف عالباب كده؟

- هاه! آآآه طبعًا .. طبعًا إتفضل

بالكاد فتح الباب تاركًا مساحة صغيرةكي أعبر كأنه يتمنى طردي والخلاص من نوبة الهلع التي سببتها له. دخلت إلى صالة صغيرة يغلب عليها الأنتيكات المقلدة أنوار خافته أثاث حديث الطراز نوعًا ما ألوان هادئة تعلن عن لمسات نسائية عاشقة في تزيين وترتيب المنزل دلفنا إلى الصالون الذي بدوره يحوي مكتبة تعج بكتب كثيرة أثاث فخم يدل على أن هذه الغرفة ليست لأى زائر استأذن (شفيق) في توتر ليطفئ النار التى أوقدها على طعامه البارد متسائلًا إن كنت أريد الغداء في عجل (عزومة مراكبية) فشكرته وانصرف متممًا - فيما يبدو- على زوجته بعدم الخروج وإصدار ضجة لم يعرف أنني كشفته لتوي ..

تقفدت المكتبة وجدتها تَعُجُّ بكتب القانون والعلوم و علم النفس و الطب النفسي! بالطبع يدرسون خططهم على أكمل وجه.

- تشرب إيه يا زين يابني؟

- بتعرف تعمل إيه؟

- أأ .. كل حاجه، اللي انت عاوزه

- اممم طيب يا سيدي اعمل لي قهوة .. عاوزين نصحصح كده .. في موضوع مهم جايلك فيه

- هو الموضوع ده ما يستناش لبكره؟

- ليه وراك حاجه؟!

- هاه! لأ أبدًا .. بس أأ .. أصلي رايح للدكتور ميعاد استشارة

- ليه سلامتك

- يعني الضغط بقا والسكر انت عارف

- طب مابتجبش حد يقعد معاك ليه؟

- أه .. وماله هجيب

- مالك مش على بعضك ليه؟

- تعبان بس من الصبح في الشغل

- اه منا مالحقتكش كنت جايلك لقيتك مشيت

obeikan.com

- طب ما كلمتنيش ليه .. كنت رجعت

- انت مش عايزني أجي هنا ولا إيه يا عم شفشق؟

- لا طبعًا يا ابني منور .. هقوم أعملك القهوة

- هاجي معاك

- ايه! لأ خليك ما تتعبش نفسك

- علشان أدردش معاك شوية تعالى بس ليه محسسني إني غريب

ذهبت معه إجبارًا إلى مطبخه لأرى معالم الخوف والتوتر التي اقتحمت وجهه وهدَّدَت قلبه و سيطرت على حالته الصحية أجمع فتصبب عرقًا أخذ يداريه بلهفته في الرد ..

في طريقنا إلى المطبخ صاح عاليًا

- إتفضل يا زين .. والله ماعارف عاوز تتعب نفسك وتقف في المطبخ معايا ليه

- بتعلّي صوتك ليه هو في حد غيرنا منا جنبك أهو!

- هاه آآه أنا أصلي عشان وحداني بحب أدي حس كده وانا ماشي في الشقة علشان .. (الله أكبر)

- ايه ده انت منهم؟ منا معاك اهو ياسيدي ما تقلقش, صحيح ما كنتش أعرف إنك مثقف. كل دي كتب في المكتبة بتاعتك؟

- المكتبة!. اااه دي كتب مراتي الله يرحمها وبنتي. مراتي كانت آداب علم نفس وبنتي بتدرس في العلوم وكده مش مثقف أوي يعني. آآ ماقولتليش يا زين كنت عاوزني في إيه؟

اردفت بتهكم شديد وسخرية واضحة

- امم الله يرحمها ويرجعلك بنتك بالسلامة. أبدًا يا سيدي شوية ورق عاوز إمضتك فيه أنا عملت مشروع صغير كده في القرية وبما إنك معاك توكيل إدارة أعمال فكنت محتاج منك إنك توقع على كذا حاجة

- ده ايه النشاط ده كله مش عوايدك يعني

- أنا قولت أعمل حاجه أتلهي فيها مش ده كلامك انت وامي. وبدل ما أسيبلك انت الشغل ده قلت أعمله أنا واخد رأيك بردو

- ماشي يا سيدي عَدَّاك العيب .. فين الورق؟

- بره في الصالون. هنمضيه في المطبخ؟ مش تقراه على مهلك كده؟

- طب تعالى اشرب قهوتك وأنا أمضيهولك على رواقه

ارتشفت قهوتي (مهرتلًا) بأحاديث ليس لها أهمية على الإطلاق وأخذت الورق و ذهبت بعدما وقَّعَ في عجل قرأ أول ورقتين بلمحة خاطفة ثم جر القلم بحروف اسمه على باقي الأوراق تباعًا.

علمت من البواب أن زوجته (هالة) تذهب يوميًا إلى نادي الجزيرة لتلتقى بزميلاتها الجدد بعدما قطعت علاقتها بأصدقاء ناديها القديم بسبب إلغاء اشتراكها به تؤجر سيارة أجرة في تمام الساعة الثانية عشرة ظهرًا ولا تعود إلا في المساء قبل ميعاد وصول زوجها من عمله.

أحاديث البوابين عن أسرار سكان العمارات لا تنتهي حقًا تُهدم بيوتًا وتُقام بسبب تلك الثرثرات المودية بأصحابها إلى دروب الهلاك.

ذهبت إلى فريدة وأخذتها في نزهة ليلية إلى الكازينو هى و (زين) حتى أوفي بوعدي الذى قطعته معه. أخذ يلهو أمامنا فلم يكن الوقت يسمح بنزهة طويلة نذهب فيها إلى إحدى الحدائق أو الملاهي.

- ماظنش ان فيه حاجه تانية في الدنيا تساوي ضحكته

- انت بتقول فيها هو عندي بالدنيا أنا مش عايزة حاجة من الدنيا غيره

- بيملى الجو روح مش طبيعية بيجبرني إني أضحك لأ و إيه .. فيلسوف

- طالع لأمه

- إنتي هتقوليلي

- عملت ايه مع شفيق؟

- كل حاجه تمام الخطة ماشية زي ما رسمناها

- ناوي تعمل إيه بعد كده؟

- يخلص الوَشّ اللي أنا فيه ده و يحلها ألف حلال

- ساعات بحس انك بتنتقم منهم علشان شمس مش علشان أمك وفلوسك

قاطعنا (زين) آخذًا يداي معلنًا عن بدأ سباق للجري فاستسلمت له مطلقًا العنان لساقيّ محاولًا عدم تخطيه وعندما سبقني حملته عاليًا ينفرج فمي ضحكًا و قلبي يرقص فرحًا باعثًا الدماء إلى وجهي لكي تزيده إشراقًا. حملته صائحًا

- انت مش طبيعي .. أنا بموت فيك

- شوفت سبقتك لازم تاكل كويس علشان تعرف تجري

- انت صح

- كل يوم بشرب كوباية لبن كبيرة

ثم دنا من أذني وهمس ..

- برميها في الحمام علشان بقرف أو ساعات بديها لجدو هو بينسى أكل إيه ولا شرب إيه أساسًا

- أساسًا أومال إزاي سبقتني يا فالح لما انت بترمي كوباية اللبن

- وطي صوتك هتفضحنا ..

- لا يا راجل

- أنا باكل شيكولاته ودي بتديني طاقة مش بتقولوا كده بردو

- اه يا بكاش

قاطعتنا فريدة

- بتتودودوا بتقولوا ايه منك ليه؟

- ابدًا يا ماما .. أونكل زين بيقولي أنه عمره ماشرب اللبن وهو صغير ودايمًا يرميه في الحمام

- لا وانت الصادق بيديه لجدو كل يوم فاكرني عبيطة يا واد انت

تعالت أصوات ضحكنا هرب (زين) من أمه جريًا خارجًا من الكازينو في مرح انتشلتُهُ بقوة قبل أن يصطدم بالعربات المجاورة ثم حملته على ظهري ليرى صفحة النيل السوداء حتى نام مرهقًا وصلنا إلى البيت فجرًا .. وضعناه في مهده الصغير بعد أن بدَّلنا ملابسه طبعنا قبلة رقيقة على رأسه و أكملنا سهرتنا في حديقة منزلها ..

obeikan.com

- ماردتش عليا

- في إيه؟

- بتعمل كل ده علشان شمس ؟

- جايز

- جايز! انت حبتها يا زين مش كده ؟

- قولتلك قبل كده إني بحبها مش حاجة بخبيها عليكي

- عارفة .. بس حبك ليها مختلف انت ما انتقمتش زمان لما بعدونا عن بعض إشمعنى هي؟

- زمان كنت لسه عيل ما أعرفش أنا صح ولا هما .. مش دايمًا القلب بيكون صادق

- ودلوقتي عرفت انك انت الصح و قلبك صادق!

- شمس ظهرت في أكتر الأوقات اللي كنت محتاج فيها واحدة تشيل عني هموم اتكومت مرة واحدة

ثم نظرت إليها معاتبًا ..

- كنتي تقدري تقربيلي في الفترة دي بس انتي ما عملتيش كده

- ما كنتش بعرف ألاقيك يا أفندي صبح وليل معاها و ساعات كتير موجود في القصر بس مختفي أظن كنت بتبقى مع صوفي مش كده؟ ما عرفتش أظهر

- إنتي ظهرتي في الوقت الصح يا فريدة

- من حسن حظي إني أظهرلك في الوقت الصح يا سيدي, شكلك ما تعرفش غير اللي بيظهروا في الوقت الصح

- ده من حسن حظي أنا بطلي بكش

جلسنا هكذا نلوم بعضنا بعضًا حتى الصباح صعدت لآخذ غفوة خفيفة حتى أواصل خطتي القادمة.

تأكدت من عدم وجود أماكن أخرى تزورها (هويدا) إلا القصر و معملها و أحد مراكز البحوث. سألت عنها فوجدت الكل يشيد بتفوقها العلمي الممزوج بغطرستها اللانهائية. يكرهها كل من حدثني عنها تحمل سمعة سيئة بين زملائها وحيدة دائمًا ترفض الاختلاط وتأبى وجود شركاء لها في أبحاثها مهما كلفها الأمر..

هاتفتها معلنًا عن أسفي الشديد من أسلوبي الجامد معها و كرهي اللا مبرر لها وطلبت منها أن تقابلني في كازينو فيينا لكنها رفضت لم توافق إلا عندما ذهبت إليها في القصر حاملًا باقة من الزهور متظاهرًا بالأسف والندم فقبلت اعتذاري ووافقت على أخذ عشائها معي على ضفاف النيل.

- على فكرة أنا مش بالسهل أخرج مع حد

- كل الأسف ده ولسه قافشه؟

- أنا بس بقولك

- ماشي يا ستي لولا إن صحة أمي بدأت تتحسن وإنها رجَّعِت الفضل كله ليكي ما كناش قعدنا القعدة دي ..

- مدام منير صحتها كويسه جدًا..

نظرت حولها متفحصة ..

- بس غريبة

- ايه الغريب؟

- الكازينو فاضي كده ليه؟ مافيش حد غيرنا

- إنتي ناسية إنه بتاعي أنا حبيت أعملك جو هادي تريحي نفسك بيه من دوشة أفكارك وأبحاثك

- امم .. حلو

- يعني إيه سما؟

- سما يعني السمو السمعة الكويسة

obeikan.com

- والله! أصلي مش بحب الإسم ده

- أومال بتحب إيه

- هويدا مثلًا ..

صُدِمَت لردي عليها وحاولت التظاهر بالثبات ..

- إيه!

- هويدا. جايه من الوضوح ولا إنتي مش واضحة؟!

- هاه! لأ طبعًا إيه اللي مش واضح فيا؟!

- يعني, تعرفي إن كل واحد ليه نصيب من إسمه وإنتي هويدا لايق عليكي أكتر

- اه كويس

- قوليلي صحيح وصلتي لإيه في أبحاثك؟

- أنهى أبحاث

- التحول الرهيب من بنى أدم لمصاص دماء خفاش يعني

فُزعت من ثباتي و هدوء أعصابي وأنا أكشف أوراقها كلها دفعة واحدة

- انت بتقول ايه مفيش حاجه اسمها كده!

- فعلًا ! طب لما مفيش حاجه اسمها كده بتقنعي أمي ليه انك بتعمليه؟!

انتفضت واقفة وهى تهم بالرحيل ..

- أنا ما أسمحلكش تهيني بالشكل ده ..

- أقعدي مخلصتش كلامي

- انت فاكر نفسك ايه؟!

- قولتلك قبل كده أنا إيه بس انتي واضح ما فهمتيش ما تحاوليش تعلّي صوتك كتير محدش هنا .. غيري أنا وانتي والأمن .. بتوعي

- أنا هوديك في ستين داهية وأقول إنك خاطفني و...

قاطعتها

- لا وحياتك أنا اللي هوديكوا في ستين داهية إنتي وأبوكي المتر المحترم و(أمك) الله يرحمها ويديها طولة العمر

جحظت عيناها وبدأت في محاولة الخروج من الكازينو لكنها لم تستطع، أحضرها أفراد الأمن المخلصين ثانيةً ..

- بس هايل .. حقيقي شابوه لعبتوها صح أوي تتظاهروا بإن أمك ماتت و تزودوا خوف الست المريضة لحد ماتوصل لحالة الفوبيا والهوس وأبوكي المحترم يقنعها بفكرة الأفلام و شوية شوية دكتورة

من بره بتعمل دراسات وممكن تساعدك والست تقتنع و تبدأي تعملي عليها تجاربك هايل

- أنا ما أذيتش مامتك أقسم بالله ما أذيتها أنا ما بعملش الكلام الفارغ ده دي دراسة بس مكلفة جامد و..

- وأبوكي ماعرفش يسرق كمية فلوس كفاية علشان يساعدك قولتوا تلبسوها فيها مش كده

- أمي طلبت منها من خمس سنين تساعدنا وهى رفضت اتكبَّرِت ودايمًا تقلل منها ومننا على ايه .. ما هيَّ هتموت ومحدش هيورثها .. دايمًا تحسسنا إنها أحسن مننا

- وده يبقى جزاءها صح؟ تجربي فيها أبحاثك تسرقوا فلوسها برضاها وهى معمية عينيها بإيديكوا

- والله ما جَرَّبت فيها حاجة أنا كنت بديها فيتامينات بديها فيتامين D اللي حرمناها منه بسبب بعدها عن الشمس وكنت باخد منها دم بس بسكتها لما بتطلب إنى أنجز وإني بقالى سنة ماوصلتش لحاجة

- و شمس؟

- شمس!

- اللي رميتها انتي وصفية بره القصر بعد ما ماتت

- ماموِّتَّهَاش هى كانت ضربات قلبها خفيفة جدًا خفت أنزِّل حد من الدكاترة يشوفها لما سيبتها بره كان رأي صفية صدقني مش أنا السبب صفية هي اللي سحبت منها دم زيادة وفِضْلِت تضرب فيها كنت بشوفها دايمًا بتعمل كده وما أعرفش ايه السبب افتكرتها واحدة من الخدامين ومضايقاها

- للأسف يا هويدا مهما بررتي إنتي السبب إنتي وأمك و أبوكي

- زين إحنا خدنا منكوا فلوس كتير أنا مستعده أبيع كل حاجة وأديهالك .. بس

- بس ايه .. ما أفضحكيش صح؟ لأ أنا فكرت وبصراحة لقيت إن أكتر حاجة ممكن تريحني وتطفّي النار اللي جوايا إني أعاقبكوا بنفس طريقتكوا و زيادة حبتين

وقفت صامتة تبلع ريقها بصعوبة ..

- الست هالة المصونة مارضتش أسيبها تطلع كدابة فقولت أديها جزء من فيلمها اللي مثلته علشان تعيش مرتاحة. تلاقيها دلوقتي بتاخد tan في واحدة من صحاري مصر حقيقي ما أعرفش أنهي بالظبط بس السواق اللي جه يوديها النادي تاه وحِلِّيني بقى لحد ما يعرف يرجع تكون اتحرقت من الشمس

- إنت مجنون أنا هوديك في داهية لو ما جيبتليش أمي تاني

قاطعتها بنفس نبرة الإنتصار..

- والسيد الوالد المحامي المحترم مضى على نفسه شيكات ووصل أمانه هيوديه ورا الشمس وعقد تنازل عن كل ممتلكاتكوا طبعًا كان خايف ومتوتر لدرجة إنه ما قرأش الورق اللي إديتهوله يوم ما كنت عندكوا فبمجرد مرواحك للقسم الشيكات هتكون سبقتك.

- إنت مريض إنت مجنون

- وطبعًا ما أقدرش أنسى ست الحسن والجمال صاحبة السمو والعظمة الدكتورة (سما) اللي يا حرام اتحرق معملها اللي في عمارتها بكل اللي فيه و اتسرقت ابحاثها من المركز بمساعدة ناس بيموتوا فيها

جملتي الأخيرة قضت عليها نهائيًا جعلتها تصرخ عاليًا جمعت كل مقامات الصوت وألقتها في أذني تسب وتلعن وتضرب ولم أنل سوى راحة داخلية عارمة اكتسحتني وبرَّدَت النار الموقدة بصدري ألقاها أفراد الأمن خارجًا بعيدًا عن الكازينو بعد ضربة قوية على الرأس أفقدتها الوعي قليلاً حتى لا تثير الشغب ..

أشفيت غليلي وأخذت بثأري وأخيرًا سأعيش راضيًا عن أفعالي فلقد واجهت مخاوفي أخيرًا وأبعدتها عن دوامة الضمير وتأنيبه.

***

(9)

الراحة كلمة صعب تحقيقها على أرض الواقع تأتي حقًا بعد عناءٍ طويل وحرب دامية, أوصال تتمزق, جسد يضعف و قلب واهن يتصبب ألمًا ودموع لا تفارق الجفون. لا تستطيع إدراكها إلا بعد أن تتذوق جُلَّ أنواع العذاب.

وقفت أمام مرآة أتساءل كيف وصلت إلى هذا الحد من الشر؟.

هل يستحقون ما فعلته بهم؟ أم بالغت في تقديري لهم؟! أم هذا أقل مايجب ردًا للجميل ؟!

أنتظر جوابًا من نفسٍ راكدة في محيط الظلمات لا تملك فمًا لتجيب يزيحها التيار إذا ما مر أو تظل ساكنة معاندة. ظللنا نلعن الأيام و قبحها حتى أرتنا الوجه الحقيقي للقبح واضطرتنا إلى النظر والمثابرة والجدال والعناد حتى وصلنا أخيرًا إلى نهاية المطاف منتظرين من سيتقبلنا و يعاود إدارة الأيام على النحو الذي تريد.

أمسكت بماكينة الحلاقة وبدأت في إزالة تلك الذقن التي شهدت أسوأ أيام حياتي وعندما ضغطت زر التشغيل قاطعتني فريدة بصوتها العذب ..

- شكلك أحلى بيها

- بتحبوا حاجات عجيبة!

- اسم الله عليكوا .. بس هى مدياك سنك يعني

- انا مش كبير أوي كده

- ومالهم الكبار؟!

- مملين مكتئبين دايمًا .. وأنا بكره الإكتئاب لو بإيدي أدفنه حيّ كنت عملت

- طب بالراحة علينا يا عم المنتقم

- ماشي يا ستي هساويها بس علشان خاطرك

- تعجبني

أخذت حقيبتي واتجهت إلى الباب معلنًا الذهاب أسرع (زين) في إطاحتها من يدي مصرًا على عدم ذهابي باكيًا.

- علشان خاطري يا أونكل ما تمشيش هفضل تاني لوحدي محدش هيخرجنى

- ما تخافش يا زين مش هتبقى لوحدك وهتخرج كتير أوعدك

- هتيجي تاني؟

- حاضر

ضمَّنِي بقوة بذراعيه الصغيرتين ومسحت دموعه بكفوفي وتركته مع ممرضة جده الذي أتى متسائلًا كعادته عن كينونتي فهربت منه قبل البدء في أساطير وهمية بالية ..

وقفت فريدة عند سيارتها منتظرة خروجي دارت دموعها باتساع مفاجئ لعينيها وابتسامة صافية وهمست بصوت خافت

- هما آه أسبوعين بس أنا اتعودت على وجودك مع انك هتبقى قدامي في القصر

- أنا مش هقعد في القصر

- ايه !

- هسلم على أمي وهسافر مش طايق القصر مش قادر أقعد فيه

- هترجع تاني فيينا يا زين؟!

- هى اللي باقيإلى انتي عارفة

- عيش هنا, ماتسيبش مصر خليك موجود زين هيفرح أوي

- ما ينفعش يا فريدة خدي بالك منه ربيه كويس أوي واحضنيه دايمًا واوعي تنشغلي عنه بأي حاجة مهما كانت

- إنت بتهدم كل حاجه أنا بنيتها جوايا

- أنا ما كنتش عايزِك تبني حاجة أنا لجأتلك وانتي كنتي عارفة أنا كنت متدمر إزاي

- مش هقدر ألومك المرة دي

- إنتي عندي غالية أوي يا فريدة صدقيني

- مصدقاك

- أنا مش هوصيكي على أمي إفضلي جنبها أما زين فأنا كتبتله قرية سياحية بإسمه علشان يفضل عايش في نفس المستوى اللى تتمنيه وإنتي كمان الكازينو بإسمك ..

- كده كتير أوي

- مش كتير أبدًا عليه ولا عليكي الفلوس مش كل حاجة وانا مش عايزها وفي ناس أولى بها وإنتي تستاهلي أكتر من كده

- أنا مش عايزة تعويض مادي يا زين إفضل هنا بأي صفة .. بس ما تمشيش

- صدقيني ما ينفعش أنا دخلت بيتك وحبيته ومش ناوي أهدمه أو حتى أخليكي تنشغلى عن زين لحظة

- ربنا يسعدك دايمًا إنت تستاهل السعادة وانا بتمناها ليك من قلبي

شحنة قاتلة من المشاعر اقتحمت هذة الساعة لن أنكر أنها طبعت على قلبي طابع مختلف له مذاقه الخاص. استكثرتها على نفسي الجشعة المتمردة تركتها وأمّنت بقدر استطاعتي مستقبلها و مستقبل ولدها. هكذا أستطيع إراحة ضميرى الذى يشن الحرب عليَّ هذه الأيام ..

ذهبت إلى القصر ممتلكًا الشعور نفسه الذي أثَّرَ فيَّ عند فريدة. صعدت إلى أمي التى بدأت تتعامل مع الجميع إلى حدٍ ما و سمحت لبصيص من الأشعة الدافئة بأن تتسرب إلى قصرنا وجدت(ياسين) جالسًا في الطابق الأول يمارس هوايتي المفضلة مع الطبيبات وُضِعَت الجنة تحت أقدامه أخيرًا.

- باشا من البشوات

- انت انتهازي على فكرة

- ليه يا معلم بس؟

- تكية أبوك دي؟ انت مش جاي تشتغل

- ما الشغل مية مية أهو مالك قافش كده؟

- ولا قافش ولا حاجة يا سيدي أمي أخبارها إيه

- عشرة على عشرة بتتحسن

- واضح

- عيب عليك

قاطعتنا ممرضة تسأله في دلال ..

- دكتور محمد هى مدام شموس هتاخد الدوا ده الساعه كام؟

- وقت ما تحب يا قمر

نكزته في كتفه موبّخًا ..

- إنت أهبل يالا !

- ايه يا عم في ايه ما تسيبنا نشوف شغلنا

- شغلك ايه يا حمار دي أمي

- هى أمك بقت ممرضة؟!

- تصدق هتغابى عليك؟ هو ايه الوقت اللي تحبيه ده

- اااه .. يابني مشي حالك

- اسكت خالص أنا غلطان إني جيتلك أساسًا

- حبيبي

- أبو شكلك

obeikan.com

أصبح هذا القصر أخيرًا يتنفس بعدما دُفِنَ في الظلام المُميت أعوامًا.
صعدت إليها مشتاقًا متشوقًا أريد رؤيتها أخيرًا بعد جلسات العلاج التي تلقتها راضية وغير راضية فهي كانت تتذمر أحيانًا كثيرة إن (ياسين) بذل مجهودًا جبارًا أراه واضحًا جليًا الآن لذا تركته يفعل ما يحلو له.

في غرفتها سمعت أصوات كناريا عذبة ورائحة الفانيلا المحببة إلى قلبها تفوح بالأرجاء نافذة نصف مفتوحة تسمح لشعاع شمسي راقٍ أن يقتحم خلوة الظلام كانت تجلس على كرسيها الهزاز مرتدية فستانًا أبيض اللون مزدانًا بتطريزٍ ذهبيّ عند الخِصر و كسرات رقيقة تكتسح منطقة الصدر منسابًا على باقي جسدها صافيًا. تقرأ رواية لإحسان عبد القدوس كانت قد توقفت عن القراءة منذ أكثر من عشر سنوات وها هي الآن تعود إليها.

لا ينقصها سوى تاج لتلقب رسميًا بلقب ملكة القصر.

- زين .. حبيبي وحشتني

- إنتي أكتر ايه الجمال ده ما عرفتكيش

- يا بكاش

- طمنيني عليكي عاملة إيه؟

- الحمدلله أحسن كتير ربنا يخليك ليا

- ويخليكي ليا يا أمي أنا مبسوط إنك رجعتي تقرأي تاني

- بسلّي وقتي

- طب إيه رأيك تيجي معايا على فيينا صدقيني هتتبسطي

- لا يا زين إعفيني أنا لسه ماقدرش أخرج بره بيتي أعذرني

- وقت ما تحبي تيجي هاجي أطير بيكي لهناك

- كان نفسي تفضل معايا

- معلش يا أمي أعذريني .. أنا بجد تعبت ولازم أرتاح

- مش هقدر أرفضلك طلب بعد اللي سببته ليك بس إبقى إنزل مصر .. بحب أحس إنك جنبي

- أنا جنبك وصدقيني مش هسيبك أبدًا

شردت عني للحظات هجمت هواجس إلى عقلها أطاحت بصفاء وجهها أرضًا أدرت وجهها إليَّ متسائلًا

- مالك يا أمي؟

انسابت دموع من عينيها تعلن عن حسرتها على ما حدث لها ترثي بها حالها وحال من اقتربوا منها تلك الفترة

- أنا أذيت ناس كتير أوي في دوامة المرض ده يا زين, خايفة من عقاب ربنا عليا أنا ما كنتش في وعيي صدقني

انهارت باكية, أدري بأن ضميرها يعذبها نتيجة قتلها لشمس. ضممتها بقوة كي تأمن وتجد شاطئًا تلقي جسدها وهمومها عليه بعد عناء التيه في بحرٍ مظلم لا ينجو منه أحد

- اللي حصل مالكيش ذنب فيه يا أمي وكل واحد أخد قَدَرُه اللي مكتوب بسببك أو بأي سبب تاني كان هياخده
- إنت أعظم إبن ربنا يخليك ليا

انتهت أخيرًا مشاهد الوداع التي قضت على مشاعري نهائيًا. أوصلني ياسين إلى المطار وعندما وصلت أخيرًا صعدت سُلم الطائرة جريًا مقررًا عدم النزول إلى تلك الأرض مرة أخرى ..

عذرًا .. لقد أذاقتني الكثير من الألم ، أفضل الحلول لمرضى الآلام هو التظاهر بنسيان المرض وهذا ما أُجيد ..

***

(10)

هبطت الطائرة أخيرًا في موطني. الوطن الذي محى من على عاتقي الأحزان و هدّأ من أثر الثورة التي تغلي في عروقي يحمل كل الليالي الصافية والسهرات الممتعة دار الأوبرا الشهيرة التي لم أترك أحدً عروضها الخمسين التي تُعرض كل سنة هذا غير عروض البالية الخيالية التي يقام منها عشرون عرضًا جديدًا سنويًا حدائقها الخلابة التي تأسرني وتريحني من ضغوط عملي تسحب يداي دون إدراك في نعومة لتعزف على آلتي الرقيقة (ليزا) الفضل الأول والأخير يرجع إلى (شتاد بارك) إحدى أكبر الحدائق التي تستوطن فيينا معي. شارع (كارنتنر شتراسه) والذي كان يقضي على معظم راتبي حين التسوق مع إحدى فاتناتي الحسناوات.

والعاشق الأول والأخير. صاحب الفضل في بث روح التفاؤل والإشراق و الصفاء، المتحكم الأول والأخير بمزاجي (نهر الدانوب) وما يحمله من نسمات منعشة صافية ورحلاته السياحية الرائعة.

الجنة على الأرض تكمن في تلك البلد. اتجهت إلى (الكازينو) الذي أخذت بنصيحة (شفيق) المفيدة واشتريته من المحتكر الدنيء العنصري و طردته من جنتي.

كل شيء كما كان يحمل ذات الروح الحالمة. لم يأسرني سوى امرأة تقف تُحَدِّقُ في نادلة نمساوية تحاول التحدث معها ولا تستطيع.

- بصي يا ستي و ما ستك إلا أنا

- (Wie Bitte?)ماذا؟

- يا وليه افهمي عاوزة أأكل البنت

- (Ich verstehe Sie nicht)أنا لا أفهمك

- ماتطلعيش عيني بقا فين سي (ران) ده

قاطعتهما مبتسمًا ..

- (Bitte, lassen Sie mich die Dam Unterstuetzen)
إذهبي سأساعدها أنا

ذهبت النادلة ناقمةً عليها بينما هى وقفت تحاول تصديق ما رأت لتوها (كالعادة رائعة الجمال) ..

- زين ! إنن.. إنت جيت إمتى؟

- حالًا .. وحشتيني

لم أكمل كلمتي إلا وأنا مُسافِرٌ بين أحضانها أخيرًا وبعد طول إنتظار..

- كل ده غياب؟ 9 شهور بحالهم؟ حرام عليك

obeikan.com

- غصب عني صدقيني لو كنت أعرف آجي كنت جيتلك.

نظرت إلى الطفلة النائمة وهى تعطيني إياها ..

- حلم.

حملت طفلتها الصغيرة رقيقة الوجه جذَّابة الملامح بريئة كالملاك كما تخيلتها من قبل تكمن بها سِمَات الصفاء تنظر إلى وجهها ولا تستطع أن تغفل عنه لحظات، لولا كونها لم تتم شهرين كاملين ، لضممتها ضمة قوية تعتصر معاني كثيرة لن يشعر بها غيرنا.

- أحلى حاجه يا شمس إنها شبهك

- أحلى حاجه إن أنا شبهك .. أنا مش مصدقة عيني أخيرًا انت هنا معانا بعد كل ده

- أنا بحمد ربنا إني وصلت في الوقت المناسب كان زمانك في خبر كان ..

- انا فرفرت منهم بسرعه بسبب (حلم) بس صفية دي بهدلتني بمعنى الكلمة

- ما كانوش يعرفوا إنك حامل أما صفية فكانت الغيرة واكلاها وأخدت جزاءها, كل اللي أذاكي اتعاقب بالشكل اللي يرضيكي

- الحمدلله أهم حاجه إننا أخيرًا هنرتاح من أشكالهم. أنا وانت وبنتنا وبس

- للأبد

- ماتسيبنيش تاني يا زين .. أنا كنت ضايعة من غيرك

- وبالنسبة لـ سي (ران) ما كانش بيساعدك في حاجه؟

- صاحبك ده ولا ليه لزمة أصلًا .. أنا كنت بعمل كل حاجه بنفسي

- اه ما هو واضح

- وحشتني

- بحبك يا مجنونة ..

ضممتها بقوة معلنًا عن قدوم عصر أبدي من السعادة التي لن تنتهى معاندًا للقدر حاملًا الحلم الذي تحقق بين يداي يئن بدلال مختلطًا بصوت شمس الملائكي العذب وهو يدندن.

(ليالي الأنس في فيينا .. نسيمها من هوا الجنة .. نغم في الجو له رنة .. سمعها الطير بكى وغنى) ...

تمت بحمد الله

obeikan.com

شكر خاص

" شكر خاص لأبي (رحمه الله) وأمي. لولاهما ما كنت يومًا وما كانت كلماتي لترى النور"

الكاتب محمد الصفتي	محمد يوسف هلال
الكاتبة هالة البشبيشي	رباب أبو بكر كيلاني
الكاتبة مروى علي الدين	يارا عاطف
سارة يوسف هلال	هدير السيد

وافر الشكر والتقدير للأساتذة الأجلاء (أ.د. سهيل سامي سليمان. أستاذ علم البيئة وتصنيف الثدييات بكلية العلوم جامعة عين شمس) و (د. كريم درويش. النائب بمستشفي الدمرداش والحاصل على درجة الماجيستير في الأمراض النفسية) على المشورة والعون الصادق الذي بذلوه لتخرج الجوانب العلمية في الرواية بالشكل اللائق.

obeikan.com

صدر للكاتبة

- **روح - رواية عام 2014**

للتواصل مع الكاتبة

ayahelal0@gmail.com

obeikan.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

Noon_publishing@yahoo.com
ت -02 35860372- 011-27772007

obeikan.com